موقع الدراسات
القبطية والأرثوذكسية

د. جورج حبيب بباوي

نسخة منقحة

الكَنِيسَةُ جَسَدُ المَسِيح

المسيح والمسيحي وشركة الجسد الواحد

www.coptology.com

Coptology

الكنيسة جسد المسيح

المسيح والمسيحي وشركة الجسد الواحد

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٤

www.coptology.org

جدول المحتويات

مقدمة تاريخية **٤**

الفصل الأول

الوجود في المسيح حسب التسليم الرسولي ١٠

الفصل الثاني

الوجود مع المسيح حسب التسليم الرسولي ٢٥

الفصل الثالث

المسيح وجسده: الكنيسة ٣٠

الفصل الرابع

التعليم الرسولي بوحدتنا واتحادنا في المسيح كما يشرحه القديس أثناسيوس الرسولي ٤٩

الفصل الخامس

الوجود الجديد الذي أعطاه المسيح للإنسانية (الأساس الأبدي للخلاص) ٥٨

الفصل السادس

بداية الجنس البشري الجديد بميلاد آدم الثاني من العذراء ٦٥

الفصل السابع

وجودنا في المسيح على الصليب حسب شرح القديس أثناسيوس ٧١

الفصل الثامن

آدم الجديد، أو آدم الثاني بحسب التسليم الكنسي كما شرحه القديس أثناسيوس الرسولي..... ٧٥

الفصل التاسع

وجودنا في المسيح بالروح القدس حسب شرح القديس أثناسيوس الرسولي في رسائله إلى سرابيون ٨٨

الفصل العاشر

الإفخارستيا تصنع الكنيسة ٩٥

الفصل الحادي عشر

الأجساد الثلاثة، نظرية لتدمير وحدانية الحياة في المسيح ١٤٢

مقدمة تاريخية

لم يبرز موضوع "الكنيسة" في الحوار اللاهوتي بين الكنائس الشرقية الأرثوذكسية، وكنائس حركة الإصلاح على اختلافها إلَّا بعد ولادة الحوار المسكوني في مطلع القرن التاسع عشر. وما صدر من أبحاث في هذا الموضوع منذ بداية القرن التاسع عشر حتى الآن كثير جداً. فقد تدفقت الدراسات في أكثر من اتجاه واحد:

١– كانت دراسات العهد الجديد في القرن العشرين قد تطورت لكي تزيل ما تراكم من دراسات القرون السابع عشر والثامن عشر، بل والتاسع عشر، لكي تنطلق صرخة العودة إلى التراث القديم .. وهكذا عاد موضوع الكنيسة جسد المسيح ليحتل مكانةً كبيرةً في الدراسات الخاصة بالقديس بولس.

٢– وانتبه علماء التاريخ الكنسي واللاهوتي إلى حقيقةٍ كانت واضحةً جداً في كتب التاريخ، ولكن لأسباب اجتماعية وسياسية، لم تحتل مكانها الصحيح، وهي علاقة المسيحية بالتراث اليهودي السابق على عصر الرب يسوع واللاحق له في الـ ٥٠٠ سنة الأولى من تاريخ الكنيسة.

لقد كان معظم أساتذة اللاهوت والتاريخ ينحدرون من عائلات الطبقة النبيلة وأشراف أوربا، وكانت نظرتهم لليهودية تخلو من الاعتدال، وأحياناً كانت تعبِّر عن عداء شديد لليهودية. وهكذا ترك أساتذة اللاهوت والتاريخ التراث اليهودي وانتبهوا إلى التراث اليوناني الكلاسيكي، أفلاطون وأرسطو وغيرهم من عظماء مفكري الحقبة اليونانية .. وفسَّر بعض هؤلاء، المسيحيةَ على أساس ما جاء في التراث اليوناني وحده، وحدثت أخطاء تاريخية ولغوية انعكست على الفكر اللاهوتي البروتستانتي بشكل خاص.

٣– وتفجَّرت دراسات الآباء بظهور الطبعات العلمية المحققة، وإثبات صحة كتابات الآباء، وكان الفضل الأكبر لرهبان الكنيسة الكاثوليكية، ولجامعات باريس ولوفان وروما. وبظهور طبعات دولية لكتابات الآباء، عاد فكر الآباء من جديد ليدخل جامعات أوربا .. وتدفق سيل الدراسات.

٤– جاءت الثورة الشيوعية في روسيا ببركة غير محسوبة، وهي هجرة بعض لاهوتيِّ الكنيسة الروسية. وأسَّس هؤلاء معهد القديس سرجيوس بباريس، وترجم هؤلاء دراسات أساتذتهم التي كانت تُنشر في مجلة الأكاديمية الأرثوذكسية منذ بداية القرن التاسع عشر، وكانت تصدرها مدرسة اللاهوت العريقة في بطرسبرج. وسمع الغرب لأول مرة منذ عصر الإصلاح في القرن السادس عشر، صوت اللاهوتيين الأرثوذكس في المقالات والكتب التي بدأت في باريس، ولندن، وأخيراً في الولايات المتحدة الأمريكية.

٥– ونشطت جامعات اليونان وبدأ الحوار مع الغرب بواسطة أساتذة اللاهوت من اليونانيين الأرثوذكس قبل بداية الحوار المسكوني. وجاء هذا الحوار على مستوى الدراسات لدرجة الدكتوراه التي قدَّمها طلبة يونانيون في جامعات ألمانيا وفرنسا وانجلترا .. فقد قدَّم هؤلاء مواد ومعلومات لم تكن معروفة للغرب .. وانعكس هذا بدوره على طلبة من مدارس اللاهوت البروتستانتية الذين درسوا في جامعات اليونان ونشروا مؤلفاتهم .. وكان من الضروري أن يُولد حوار في إطار الجو العلمي الأكاديمي وفي إطار العلاقات الكنسية .. وكانت ثمرة كل هذا هو العودة إلى التراث القديم الذي يبدأ بالعصر الرسولي ولا يتوقف بالمرة، بل يستمر في التاريخ البيزنطي حتى القرن التاسع عشر.

الشرق العربي النائم

لا يجب أن نكتفي "بالإحساس الروحي"، والحس التاريخي بأننا كنيسة الآباء والشهداء. بل يجب أن يتحول هذا الإحساس إلى إنتاج علمي جيد ينشر النصوص والدراسات حتى لو كانت تخالف ما لدينا من أفكار عامة، مهما كان قائلها، ومهما

كانت رتبته الكنسية .. لأننا في حقيقة الأمر لا نعرف عن تراثنا الأرثوذكسي إلَّا القليل، وما صدر عندنا من ترجمات ليس إلَّا نقاط قليلة من الماء.

أهم الاختلافات اللاهوتية بين الشرق والغرب حول الكنيسة جسد المسيح

لا نملك أن نقدِّم ملخصاً وافياً لِما صدر من دراسات حول "جسد المسيح"، لأن ما صدر أكبر من المساحة التي خُصصت لهذه الدراسة، لكن يجب أن نرتب قاعدة التعليم اللاهوتي قبل الخوض في التفاصيل على أساس من المقارنة بين الشرق والغرب

الشرق	الغرب البروتستانتي
١– الكنيسة جسد المسيح فعلاً؛ لأن المسيحي هو عضو في جسد المسيح بواسطة المعمودية والإفخارستيا، لأن الروح القدس يكون أعضاء المسيح أي أعضاء الجسد الواحد الكنيسة، وهو الذي يوحدهم بكل الأعضاء عبر العصور السابقة والعصور الآتية حتى يوم الدينونة.	**١–** الكنيسة جسد المسيح بمعنى رمزي، لأنها جماعة تأتلف حول كلمة الله وتغتسل بالماء وبالكلمة وتحتفل بذكرى عشاء الرب.
٢– الإفخارستيا تكوِّن الكنيسة؛ لأن الإفخارستيا هي جسد المسيح الحقيقي الذي يعطى بالروح القدس ويُعلَن بالصلاة وحياة القداسة، ويوهَب بواسطة الرب نفسه من أجل غفران الخطايا والحياة الأبدية وشفاء الجسد والروح.	**٢–** الإفخارستيا ذكرى يعود فيها الإنسان إلى ما تم على الصليب ويتذكره، لكي يتحد بالإيمان بالمسيح في قلبه وفكره.

لعل القارئ الأرثوذكسي الذي يواظب على حضور القدَّاسات قد تذكَّر عبارات من الليتورجية تؤكد ما ذكرناه تحت بند قاعدة التعليم اللاهوتية الأرثوذكسية. وهناك أمور أخرى هامة جداً عن الأسرار الكنسية، وموضوع الخلاص والمصير الأبدي .. وهذه سوف نتركها إلى أن يحين وقت الكلام عنها إن شاء الرب وعشنا.

لكن تبرز نقطة هامة، وهي جديرة بالاعتبار ولا يمكن أن نتركها، تلك الخاصة بجسد المسيح، وعلاقة المسيح بالمؤمنين. وكما لاحظ أساتذة العهد الجديد في العصر الحديث إن عبارة "جسد المسيح" تظهر أولاً في خبر العشاء الرباني (١ كو ١١: ٢٣)، ثم تظهر بعد ذلك في التعليم الرسولي عن الكنيسة، وعن المعمودية. هذه العناصر الثلاثة لا يمكن فصلها عن بعضها، بل هي كلها تعود إلى المسيح نفسه.

قاعدة الإيمان الأرثوذكسي

سوف نرى عبر الصفحات التالية أن التعليم الرسولي يؤكد أن صلتنا بالرب يسوع ليست صلة فكرية وعاطفية وروحية فقط، بل هي صلة بجسده ودمه ولاهوته، وإن ما حدث في بيت لحم والأردن والعلية والجلجثة والقبر هو أساسات الخلاص التي أسَّسها الرب نفسه، وهي الأساسات التي جعلها الرب ينابيع خلاص. فمن ميلاده من العذراء أخذنا ميلادنا وأصلنا الجديد، ومن معموديته أخذنا مسحة الروح القدس، ومن العلية أخذنا هبة سرِّ الإفخارستيا، ومن الجلجثة أخذنا الغفران وإبادة الموت، ومن القبر أخذنا الحياة الأبدية والقيامة وعدم الفساد، ومن الصعود أخذنا ميراث الملكوت ودخول الموضع الذي لم يدخل إليه إنسانٌ من قبل، حسب كلمات قسمة سبت الفرح .. هذه الينابيع ترتبها الليتورجية على هذا النحو ....:

الميلاد من العذراء:

هو ميلاد آدم الجديد، وهو اشتراك الروح القدس في تكوين الطبيعة الإنسانية الجديدة في أحشاء البتول، لكي تكون بداية الجنس البشري الجديد الذي يُولد من آدم الجديد بالماء والروح القدس.

معمودية الرب في الأردن:

هي مسحة ناسوت الرب بالروح القدس، وتقديس للمياه لكي تصبح مع الروح القدس وسيلة الخلاص، ولكي يسكن فينا الروح القدس إلى الأبد بعد أن مَسَحَ وحلَّ وسَكَنَ في آدم الثاني، أو الجديد.

العشاء الرباني[١]:

هو هبة جسد الرب ودمه. فهو كما يقول القداس الغريغوري:

"يا الذي أعطى ... في ذلك الزمان، الآن أيضاً يا سيدنا أعطنا نحن
وكل شعبك يا ضابط الكل الرب إلهنا، جسدك المقدس ودمك الكريم".

وهو عطية غفران الخطايا واستنارة العقل والإدراك، والقيامة من الأموات، وتجديد النفس والجسد، والشركة في لاهوت الابن المتجسد.

---

(١) تعبير العشاء الأخير هو تعبير غير أرثوذكسي ولم يرد بالمرة عند الآباء أو في الليتورجيات لأن كل إفخارستيا هي عشاء الرب، والرب جالس معنا في الهيكل كما جلس مع تلاميذه لكي يوزع علينا جسده ودمه المقدس.

الصليب:

شفاء الطبيعة الإنسانية، وكسر قوة الموت، ودمار الجحيم، ورفع لعنة الموت، وإبادة سلطان الشيطان، وإعلان محبة الثالوث.

القيامة:

إبادة الفساد، قيامة الجسد، عطية الحياة الأبدية.

الصعود:

هو جلوسنا مع الرب عن يمين الآب، ودخولنا السموات.

وقبل أن ندرس هذا عند الآباء، نحتاج إلى أن نلقي نظرة شاملة على العهد الجديد، وعلى التعليم الرسولي في شكله القديم الأصيل، وبشكل خاص عند القديس بولس.

الفصل الأول

الوجود في المسيح

حسب التسليم الرسولي

الوجود في المسيح

يقول الرسول: "إِلَى جَمِيعِ الْقِدِّيسِينَ **فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ**" (فيلبي ١: ١)، وأيضاً: "أَعْرِفُ إِنْسَاناً **فِي الْمَسِيحِ**" (٢كو ١٢: ٢)، "إِذاً لاَ شَيْءَ مِنَ الدَّيْنُونَةِ الآنَ عَلَى الَّذِينَ هُمْ **فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ**" (رو ٨: ١ – راجع فيلبي ١: ١ – أفسس ١: ١ – كولوسي ١: ٢ – رو ١٦: ١١ – ٢كو ١٢: ٢ – فليمون ١٦ – ١ تسالونيكي ٤: ١٦ – ٢ تيمو ٣: ١٢).

والوجود في المسيح هو وجود خاص بالفرد والجماعة، فعن نفسه، يقول بولس: "مَا كَانَ لِي رِبْحاً فَهَذَا قَدْ حَسِبْتُهُ مِنْ أَجْلِ الْمَسِيحِ خَسَارَةً؛ .. لِكَيْ أَرْبَحَ الْمَسِيحَ **وَأُوجَدَ فِيهِ**" (فيلبي ٣: ٧ – ٩)، هذا الوجود الذي يقول عنه في مناسبة أخرى: "أَعْرِفُ إِنْسَاناً **فِي الْمَسِيحِ**" (٢كو ١٢: ٢). والوجود في المسيح يعني كلمة واحدة **أن يكون الإنسان مسيحياً**. ومن أجل المسيح عُومل بولس كسجين، ولذلك يقول: "إِنَّ وُثُقِي (السلاسل) صَارَتْ ظَاهِرَةً **فِي الْمَسِيحِ** فِي كُلِّ دَارِ الْوِلاَيَةِ" (فيلبي ١: ١٣)، ويفتخر

بولس بأنه سجين مسيحي، من أجل المسيح، صارت السلاسل ظاهرة في المسيح. هذه أحد مكونات الخليقة الجديدة "إِنْ كَانَ أَحَدٌ **فِي الْمَسِيحِ** فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ" (٢ كو ٥: ١٧)، فالفرد في حد ذاته هو أساس الخليقة الجديدة في العالم، ولكن كما سنرى بعد ذلك هذه الخليقة الجديدة هي في المسيح، إنها لا يمكن أن تتكون خارج المسيح، بل هي فيه هو وحده.

وإذا كان الفرد المسيحي "**فِي الْمَسِيحِ**"، فهذه العبارة خاصة أيضاً بالجماعة، ولذلك يقول الرسول: "وَأَكْثَرُ الإِخْوَةِ، وَهُمْ **وَاثِقُونَ فِي الرَّبِّ**" (فيلبي ١: ١٤)، فالأخوة لهم **ثقة في الرب**، إنها ليست ثقة خارج المسيح؛ لأن الموضوع هنا هو شهادة الجماعة للمسيح "إِلَى الْقِدِّيسِينَ فِي كُولُوسِّي، وَالإِخْوَةِ الْمُؤْمِنِينَ **فِي الْمَسِيحِ**" (كولوسي ١: ٢)، فالجماعة توجد في المسيح مثل وجود الفرد الواحد. وهكذا يقول الرسول بولس عن الجماعة "لاَ شَيْءَ مِنَ الدَّيْنُونَةِ الآنَ عَلَى الَّذِينَ هُمْ **فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ**" (رو ٨: ١).

الوجود في المسيح يعلنه السلوك

هناك فرق بين ضيافة وشركة محبة حسب مقاييس العالم، وضيافة حسب مقاييس المسيح "أُوصِي إِلَيْكُمْ بِأُخْتِنَا فِيبِي ... كَيْ تَقْبَلُوهَا **فِي الرَّبِّ** كَمَا يَحِقُّ لِلْقِدِّيسِينَ وَتَقُومُوا لَهَا فِي أَيِّ شَيْءٍ احْتَاجَتْهُ مِنْكُمْ" (رو ١٦: ٢).

والسلوك المسيحي، أي الوجود في المسيح هو سلوك ظاهر "أَيُّهَا الإِخْوَةُ نَسْأَلُكُمْ وَنَطْلُبُ إِلَيْكُمْ **فِي الرَّبِّ يَسُوعَ**، أَنَّكُمْ كَمَا تَسَلَّمْتُمْ مِنَّا كَيْفَ يَجِبُ أَنْ تَسْلُكُوا وَتُرْضُوا اللهَ، تَزْدَادُونَ أَكْثَرَ" (١ تس ٤: ١). وحتى الوصية نفسها يقول عنها الرسول "لأَنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَيَّةَ وَصَايَا أَعْطَيْنَاكُمْ **بِالرَّبِّ يَسُوعَ**" (١ تس ٤: ٢). وهكذا يشهد بولس عن هذا السلوك "فَأَقُولُ هَذَا وَأَشْهَدُ **فِي الرَّبِّ**، أَنْ لاَ تَسْلُكُوا فِي مَا بَعْدُ كَمَا يَسْلُكُ سَائِرُ الأُمَمِ أَيْضاً بِبُطْلِ ذِهْنِهِمْ، إِذْ هُمْ مُظْلِمُو الْفِكْرِ، وَمُتَجَنِّبُونَ (غرباء) عَنْ حَيَاةِ اللهِ لِسَبَبِ الْجَهْلِة (ظلام العقل) الَّذِي فِيهِمْ" (أف ٤: ١٧). وشركة الأخوة معاً

هي "شركة القديسين"، وهي أيضاً الأخوة، التي تجعل الخدمة المشتركة "الْعَامِلَيْنِ مَعِي **فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ**" (رو ١٦: ٣)، وهذا يجعل بولس يرسل السلام إلى اوربانوس العامل معنا "**فِي الْمَسِيحِ**" (رو ١٦: ٩)، وقبول فيبي في الرب يعني قبول الجماعة، فهي والجماعة لهم هذا الوجود المشترك في المسيح. وهذا يجعلنا نقيِّم وضع الرؤساء الروحيين حسب التعليم الرسولي "نَسْأَلُكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنْ تَعْرِفُوا الَّذِينَ يَتْعَبُونَ بَيْنَكُمْ وَيُدَبِّرُونَكُمْ **فِي الرَّبِّ**" (١ تس ٥: ١٢)، لأن التدبير أو سياسة وقيادة الجماعة بدون الرب، تلغي ذلك الوجود المشترك، وجود الفرد والجماعة في المسيح.

الحياة في المسيح

يقول الرسول "افْرَحُوا **فِي الرَّبِّ**" (فيلبي ٣: ١ – ٤: ٤، ١٠)، ويؤكد "الافتخار **فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ**" (رو ١٥: ١٧ – ١ كورنثوس ١: ٣١ – ١٥: ٣١ – ٢ كورنثوس ١٠: ١٧). وهذه الحياة يحصرها الرسول في عبارة واحدة "السلوك **في الرب**" ويضعها في شكل وصية حياة "فَكَمَا قَبِلْتُمُ الْمَسِيحَ يَسُوعَ الرَّبَّ اسْلُكُوا **فِيهِ**، مُتَأَصِّلِينَ وَمَبْنِيِّينَ **فِيهِ**، وَمُوَطَّدِينَ فِي الإِيمَانِ، كَمَا عُلِّمْتُمْ، مُتَفَاضِلِينَ **فِيهِ** بِالشُّكْرِ" (كو ٢: ٦ – ٧)، ويضيف رسول المسيح "الرجاء في المسيح" "العمل والتعب **في المسيح**" (رو ١٦: ١٢).

نوعية الحياة في المسيح

يقول الرسول "سَلِّمُوا عَلَى أَبَلِّسَ الْمُزَكَّى **فِي الْمَسِيحِ**" (رو ١٦: ١٠)، وهذه الحياة قد تبدأ بالطفولة، وهذا هو بداية التعليم "أركان المسيح" (عب ١: ٦)، وهؤلاء يقول عنهم الرسول "كأطفال **في المسيح**" (١ كو ٣: ١)، وينمو الطفل لكي يصبح كاملاً "**فِي الْمَسِيحِ**" (كو ١: ٢٨). وعندما يحب الرسول شخصاً مثل اميلياس يقول عنه "حبيبي **في الرب**" (رو ١٦: ٨). والحكماء **في المسيح** (١ كو ٤: ١٠). والحياة في المسيح قد تلزم رسول المسيح بأن يقول "ضعفاء **فيه**" أي في المسيح، لأن الصليب

كما يقول هو نفسه "صُلِبَ عن ضعفٍ" (٢كو ١٣: ٤)، والاستسلام لموت الصليب هو حالة ضعف تسبق قوة القيامة "سنحيا **معه** بقوة الله" (٢كو ١٣: ٤). وحياة في النور، والسلوك في النور هي أن تكون "**نورٌ في** الرب" (أف ٥: ٨). وحتى وصية طاعة الزوجة، هي طاعة في الرب، وكما يليق في الرب "أَيَّتُهَا النِّسَاءُ، اخْضَعْنَ لِرِجَالِكُنَّ كَمَا يَلِيقُ **فِي الرَّبِّ**" (كو ٣: ١٨)، لأن هذا هو خضوع كل الذين في الرب والرجال أيضاً.

"في المسيح"، كوسيط واحد بين الله والناس

يقول الرسول "كُونُوا ... مُتَسَامِحِينَ كَمَا سَامَحَكُمُ اللهُ أَيْضاً **فِي الْمَسِيحِ**" (أف ٤: ٣٢)، والله يعطي ما يشاء، ولكن هذا العطاء هو في المسيح حسب غنى نعمته التي "أنعم بها علينا **في المحبوب**" (أف ١: ٧ – ٨). وهذه هي "هبة الله حياة أبدية **في المسيح** يسوع ربنا" (رو ٦: ٢٣). وبسبب وساطة المسيح حل قانون أو ناموس أو شريعة الحياة، محل قانون وناموس وشريعة موسى "شريعة أو ناموس الحياة **في المسيح** يسوع قد أعتقني (حررني من العبودية)، من ناموس الخطية والموت (رو ٨: ٢)، وما يوصف بالبركة، له وجود حقيقي في المسيح، ولا توجد بركة خارج المسيح. ويؤكد الرسول هذه الحقيقة التي لا يجب أن تغيب عن الأذهان، إن بركة الله لإبراهيم أب الآباء صارت الآن، لنا نحن الذين لم نُولد حسب الجسد من إبراهيم، ويشرح الرسول هذه البركة مؤكداً أنها عطية الروح القدس "لتصير بركة إبراهيم للأمم **في المسيح** يسوع لننال بالإيمان موعد الروح" (غلا ٣: ١٤). هذه هي البركة الحقيقية التي تُعطى في المسيح يسوع بالإيمان.

وبسبب وساطة المسيح يقول الرسول "الذي لنا **فيه** الفداء" (كو ١: ١٤)، فلا يوجد فداء خارج المسيح. وحتى الشكر يجب أن يكون في المسيح "اشكروا في كل شيء لأن هذه هي مشيئة الله **في المسيح** يسوع من جهتكم" (١ تس ٥: ١٨)، هذا يضعنا أمام الحقيقة المطلقة التي لا يمكن أن نساوم عليها "أسعى نحو الغرض لأجل المكافأة العظمى التي دعانا الله إليها **في المسيح**" (فيلبي ٣: ١٤ – راجع الترجمة البيروتية). نحن

ننال كل شيء في المسيح حسب وعد الله الذي سمعناه في البشارة المفرحة أي الإنجيل (أف ٣: ٦).

والذين يتكلمون عن التبرير بالإيمان يجب عليهم إضافة "**في المسيح**". هذه الإضافة وردت عند رسول المسيح وتجعل التبرير في المسيح "لأنه بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما، فإن كنا ونحن طالبون أن نتبرر **في المسيح**" (غلا ٢: ١٧)، وهكذا بموت المسيح، صرنا نحن الخطاة بر الله في المسيح "لنصير نحن بر الله **فيه**"[١]، (٢ كو ٥: ٢١). وليس فقط التبرير، بل أيضاً التقديس هو **في المسيح** (١ كو ١: ٢)، لأننا إن كنا قد عرفنا الموت في آدم الأول الذي فيه يموت الجميع، فإننا **في المسيح** "سيُحيا الجميع" (٢ كو ١٥: ٢)، فلا حياة أبدية لنا خارج المسيح أو بدون المسيح.

حتى الحرية، ليست فقط حرية، بل هي "حريتنا التي لنا **في المسيح**" (غلا ٢: ٤)، هذه الحرية هي التي تجعلنا نسير في موكب الانتصار "يقودنا في موكب نصرته **في المسيح** كل حين" (٢ كو ٢: ١٤)، وحريتنا في المسيح هي التي أبطلت البرقع وأبطلت مطالب شريعة موسى، ولكن هذا تم "**في المسيح**"، فالخليقة الجديدة ليست من عمل الناموس أو حسب شريعة موسى، بل "نحن عمله مخلوقين **في المسيح** يسوع لأعمال صالحة قد سبق الله فأعدها لكي نسلك فيها" (أف ٢: ١٠)، لأن هذه الخليقة الجديدة هي حسب كلمات الرسول:

أحيانا مع المسيح
أقامنا معه
أجلسنا معه في السماويات
وحجر الزاوية في كل هذا "**في المسيح يسوع**" (أف ٢: ٤ – ٦).

---

(١) حسب قراءة كل آباء الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية دون استثناء لنص ٢ كو ٥: ٢١ "جعل الذي لم يعرف خطية ذبيحة خطية لأجلنا"؛ لأن كلمة خطية كما وردت في العهد القديم وفي الترجمة السبعينية هي اسم ذبيحة الخطية. راجع هوشع (٤: ٨)، حيث يذكر النص كيف يأكل الكاهن "خطية الشعب"، أي ذبيحة الخطية.

لقد وُهِب لنا هذا الميراث وهذا النصيب: "الذي **فيه** (في المسيح)، نلنا نصيباً معينين سابقاً (أف ١: ١١)، أي قبل أن نُخلق ونوجد. ولأننا في المسيح يقول الرسول: "وأنتم مملوؤن **فيه** الذي هو رأس كل رياسة وسلطان" (كو ٢: ١٠)، فالمسيح هو بداية وأصل كل رياسة وسلطان، فلا رياسة أو سلطان خارج المسيح؛ لأن هذه الرياسة والسلطان هي رياسة مزيفة ولا وجود حقيقياً لها، ونحن جميعاً نمتلئ من هذه الرياسة والسلطان في المسيح، لكي نبقى فيه، وإلَّا بَطُل قول الرسول: "كما اختارنا **فيه** قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدامه في المحبة" (أف ١: ٤). مَن الذي يمكنه أن يُبطِل مشيئة الله؟ هذه المشيئة التي سبقت خلقنا؛ لأن نعمة الله قد أعطيت لنا **في يسوع** المسيح (راجع ١ كو ١: ٤).

الوجود الجديد في المسيح هو وجود الواحد والجماعة: "وَاحِدٌ فِي الْمَسِيحِ" (رو ١٢: ٥)

يقول الرسول "نَحْنُ الْكَثِيرِينَ: جَسَدٌ وَاحِدٌ **فِي الْمَسِيحِ**" (رو ١٢: ٥)، والواحد هنا ليس واحداً حسابياً مثل رقم (١)، بل هو بدقة "جسد واحد". وقياساً على حقيقة تنوع وتعدد الجسد الإنساني الواحد يقول الرسول "كَمَا فِي جَسَدٍ وَاحِدٍ لَنَا أَعْضَاءٌ كَثِيرَةٌ وَلَكِنْ لَيْسَ جَمِيعُ الأَعْضَاءِ لَهَا عَمَلٌ وَاحِدٌ. هَكَذَا نَحْنُ الْكَثِيرِينَ: جَسَدٌ وَاحِدٌ" (رو ١٢: ٤ – ٥). ويعود الرسول بعد ذلك لكي يؤكد أن هذا الاختبار الجديد ليس فكراً أو تعليماً بشرياً غامضاً يُقال في فراغ وينطلق من خيال الإنسان، ولكن هذا هو الاختبار الحي للمسيح الحي في سر الإفخارستيا:

نحن الكثيرين
خبزٌ واحد
جسدٌ واحد

لأننا جميعاً نشترك في الخبز الواحد (١ كو ١٠: ١٦ – ١٧). هذه الوحدة

تجعل الكنائس المتعددة. في المسيح (غلا ١: ٢٢ – ١ تس ١: ١ – ٢ تس ١: ١).

يسوع المسيح الذي يجمع الكون والوجود كله

تقول افتتاحية إنجيل يوحنا عن الكلمة اللوغوس: "كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ" (يوحنا ١: ١). ويقول الرسول بولس: "فَإِنَّهُ فِيهِ خُلِقَ الْكُلُّ: مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا عَلَى الأَرْضِ، مَا يُرَى وَمَا لاَ يُرَى، سَوَاءٌ كَانَ عُرُوشاً امْ سِيَادَاتٍ امْ رِيَاسَاتٍ امْ سَلاَطِينَ. الْكُلُّ بِهِ وَلَهُ قَدْ خُلِقَ" (كو ١: ١٦).

وهنا –بشكلٍ خاص– يجب أن نقدِّم تسليم الآباء بخصوص هذا الموضوع؛ لأن هذا الموضوع بشكل خاص لم يحظَ بعناية ودراسة المؤلفين اللاهوتيين بعد عصر كبار الآباء، حتى جاء الأب "تيار دي شاردان" وأيقظ هذه النبتة الصغيرة النائمة بكتاب "نشيد الكون" وغيره. فإذا قال الرسول يوحنا، والرسول بولس إن كل الأشياء قد خُلقت **فيه**، أي في الابن كلمة الله ربنا يسوع المسيح، فإن ما يجب أن نراه حسب الإيمان إن الكلمة أعطى ما يُعرف عند الآباء باسم ***Logoi*** أي القوانين والحدود التي ترسم حدود كل طبيعة مخلوقة وتجعل لها:

١– صلة بالله.

٢– صلة بباقي المخلوقات.

٣– تحدد طبيعة وعمل كل مخلوق على حدة، وكل المخلوقات معاً في وحدة واحدة.

وهكذا جاء الرب يسوع المسيح لكي يجمع من جديد، وبتجسده الكون كله العلوي والسفلي، المنظور وغير المنظور لكي يوحِّد الكون الذي انقسم أولاً على المستوى الروحي بسقوط طغمة الملائكة التي كانت تحت رئاسة سطنائيل، وعاد وانقسم من جديد مرة ثانية بسقوط رأس الخليقة المنظور آدم الأول، ومعه سقطت باقي المخلوقات التي كانت تخضع لرئاسة آدم على النحو الذي يذكره الرسول بولس في (رو ٨: ١٨ وما

بعده)، وهو أكبر نشيد كوني ورثناه من عصر الرسل، ولا يعادله إلَّا نشيد القديس أكليمنضس السكندري للكلمة "المربِّي" والذي بني على أساسه.

يقول الرسول بولس عن الرب يسوع إنه جاء لكي يعلن خطة الله، أو حسب كلمات الرسول "تدبير ملء الأزمنة" (أف ١: ١٠)، هذا التدبير:

١– يجمع كل شيء في المسيح.
٢– ما في السموات وما على الأرض.
٣– في ذاك الذي فيه.
٤– نلنا نصيباً معينين سابقاً.
٥– إذ آمنتم ختمتم بروح الموعد القدوس. (أف ١: ١٠ – ١٤).

وقد اهتم الآباء: أوريجينوس، وغريغوريوس النيسي، وكيرلس الكبير، ومكسيموس المعترف بدراسة الموضوع وتركوا لنا ذخائر نحتاج لوقت طويل لكي نستوعب ما فيها، ولكن نكتفي في الوقت الحاضر بالإشارة إلى الدراسات التي صدرت في أوربا ونحيل القارئ عليها. أمَّا جوهر هذه الدراسات، فيمكن حصره في مبادئ تحتاج إلى شرحٍ وافٍ:

أولاً: اتحاد اللاهوت، أي لاهوت الابن بالناسوت:

أي اللاهوت بالطبيعة الإنسانية المخلوقة من القديسة مريم والتي كوَّنها الروح القدس لكي تكون جسد و"مسكن"[(١)]، الابن الكلمة. هذا المسكن الذي يوصف في القداسات القبطية بشكل خاص "المسكن المستعد" (راجع صلاة استدعاء الروح القدس في القداس القبطي المرقسي) "أرسل من حضنك غير المحدود، ومسكنك المستعد

(١) مسكن أو خيمة أو قبة، ودخلت الكلمة اليونانية القبطية الليتورجيات الشرقية وصارت القبة أو "الأسكنة" هي: العذراء القديسة مريم، وناسوت الرب يسوع، ثم هيكل الكنيسة الجامعة الذي يوجد فيه المذبح. لعل القارئ القبطي قبل غيره من الأرثوذكس يذكر كيف كان شيوخ الكنيسة يقولون لنا إن دخول الهيكل يجب أن يكون بقدمين حافيتين لأن الهيكل مثل العليقة التي اشتعلت بنار اللاهوت، وهي مثال العذراء، وإعلان عن هيكل الكنيسة الجامعة، بل وعن هيكل كل مسيحي مؤمن، يسكنه الرب يسوع بالروح القدس.

(المهيَّأ)"، فالابن في حضن الآب حسب كلمات إنجيل يوحنا (١: ١٨)، وهو الذي منه تقبل الكنيسة المقدسة الروح القدس.

وقد جعل اتحاد اللاهوت بالناسوت، دخول الخليقة كلها إلى شركة مع الثالوث، ليس فقط ممكناً، بل هو غاية تجسُّد الابن، حسب كلمات الرسول بولس "تدبير ملء الأزمنة"، ودخولنا إلى هذه النعمة التي نحن مقيمون فيها حسب كلمات القديس بولس (رو ٥: ٢)، هو بسبب وجود رأس الخليقة الجديد ربنا يسوع المسيح في حضن الآب.

ومعنا تدخل الملائكة، لأنهم صاروا بسبب حراستهم، وخدمتهم للذين يرثون الخلاص (عب ١: ١٤)، أعضاء في جسد المسيح، وهو ما يفعله الطقس الأرثوذكسي القبطي والبيزنطي والأرميني والسرياني. واتفاق الطقوس يؤكد أن هذا التعليم هو جزء لا يمكن فصله عن تقليد الكنيسة الجامعة قبل الانقسام الحزين والمؤلم في ٤٥١م (مجمع خلقدونية).

يقول طقسنا القبطي الأرثوذكسي في خدمة سر المعمودية:

> "اقبلهم على مذبحك المقدس السمائي بواسطة خدمة ملائكتك ورؤساء ملائكتك الأطهار".

وهي ذات الكلمات التي نقرأها عند العلامة أوريجينوس.

وهذه الوحدة الروحية تحت رأس الخليقة الواحد ربنا يسوع نراها في تقديم البخور للملائكة، وفي دورة الصليب حيث نرفع الصليب "شجرة الحياة"[١]، ونطوف به حول الأيقونات نقرأ الأناجيل، ونصلي لكي نكتشف حقيقة الوحدة الروحية التي تجمع السموات والأرض، وهو ما تؤكده صلواتنا:

---

(١) شجرة الحياة لأننا نضع أغصان الشجر والورود ويزين بكل ما هو جليل وجميل، لأنه ينبوع الحياة.

"صعد إلى أعلى السموات وأرسل لنا البارقليط روح الحق المعزي.
جعل الاثنين واحداً: أي السماء والأرض".

ثانياً: موت الرب وقيامته:

اكتسب الصليب أداة تعذيب وقتل المجرمين والثوار في العصر الروماني، قوة خلاص، وشفاء، وتجديد لأن الذي صعد على الصليب هو ابن الله المتجسد. وبموت المسيح على الصليب أباد الرب قوة الموت. "كانت الخطية تملك في الموت" كما يقول الرسول كانت علامة مُلك وسيادة الخطية على الإنسانية هي قدرة الخطية على أن تدفع لمن يريد، الأجرة البشعة "الموت" وهذا ما يؤكده الرسول بولس:

- كما ملكت الخطية في الموت (رو ٥: ٢١).

- أجرة الخطية هي موت (رو ٦: ١٣).

وجاء الرب، وبموته أباد الموت، ففقدت الخطية عرشها الذي لا يمكن لذراع بشري أو قوة إنسانية أن تحطمه، "ونزل إلى الجحيم من قبل الصليب"، وهناك -كما يقول طقسنا القبطي- "بدد قوات الجحيم"، غلب المسيح بالصليب قوة الموت؛ لأنه قَبِله وأخذه وحوَّله من عقاب إلى سر عظيم، هو سر المعمودية. وبالصليب وحده أمكننا أن نتَّحد بالرب "بشبه موته" (رو ٦: ٥)، هذه الحقيقة لا يجب أن تغيب عن أذهاننا؛ لأن موت آدم الأول ليس مثل موت آدم الأخير ربنا يسوع المسيح، بل هو كما تقول كل الليتورجيات الأرثوذكسية: "الموت المحيي". "إذ نصنع ذكر آلامك المقدسة وموتك المحيي" (القداس الغريغوري). وتحوَّل الموت إلى قوة خلاص؛ لأن الرب قبله في الصليب لكي يبيد به الخطية "الذي مات قد تبرأ من الخطية" (رو ٦: ٧)، كيف؟ يجيب الرسول: "إنساننا العتيق قد صلب معه ليبطل جسد الخطية لكي لا نعود نُستعبد (من جديد)، للخطية" (رو ٦: ٦).

وصار الصليب هو العلامة التي تفصل بين الموت والحياة، ولذلك يوضع على أجسادنا بمسحة الميرون المقدس قوة حياة[١]. ويجمعنا الصليب في الطقوس وفي الحياة الروحية في شريعة واحدة، هي شريعة البذل، هذه نراها على مستوى الكون كله لأن كافة المخلوقات تقدم، ما لديها عن طواعية –وحسب اختيار القانون والحدود التي فرضها الله على كل طبيعة مخلوقة– الحياة للآخرين لكي يجود الكل بحياة تجعل الكون كله وحدة حياة. لكن هذه الوحدة التي دخل عليها الموت، يدخل معها قانون آخر هو قانون الموت الذي يقول عنه الرسول: "أُخضعت الخليقة للبُطل" ***Futility***، أي الموت الذي لا يؤدي إلى حياة مثل موت الأشجار بالطفيليات، موت الأجنة في بطون الأمهات، موت الصبيان والأطفال قبل سن البلوغ. ولكن هذا القانون الذي يقول عنه الرسول أخضع الخليقة "ليس طوعاً"، بل بإرادة الذي أخضعها على رجاء الحياة التي لا فساد فيها، وهي الحياة الآتية بالقيامة والتي ظهرت في يسوع المسيح. وحسب شرح القديس مكسيموس المعترف وغيره من الآباء، جاء المسيح وجمع في كيانه الإلهي الإنساني القوة والحدود ***Logoi*** والنعمة الجديدة التي تحدد الخليقة، ولذلك أعلن المسيح المصالحة على خمس مستويات هامة:

١– مصالحة الذكر والأنثى.

٢– مصالحة الفردوس مع العالم (الفردوس هو اسم الكنيسة في طقوس الكنائس الأرثوذكسية).

٣– مصالحة السماء مع الأرض.

٤– مصالحة الله مع الخليقة كلها.

٥– مصالحة المادة مع الروح.

---

(١) راجع كتاب "معاني رشم الصليب" د. جورج حبيب بباوي. منشور على موقع: www.coptology.com

وهكذا صار الرأس الذي "حلَّ فيه كل ملء اللاهوت جسدياً" (كو ٢: ٩)، هو الذي يجعلنا "مملوؤن فيه"، أي من القوة والنعمة وتجلي الخليقة الجديدة بتحولها في المسيح من الموت إلى الحياة.

إن ما أعلنه المسيح من حدود جديدة، أي ***Logoi*** هو في حقيقة الأمر نابع من كيانه الإلهي المتأنِّس. لأنه لا يخلق هذه المرة من العدم، بل يعطي –كنعمةٍ– شركةً في حياة المسيح. وهكذا "**في المسيح**" ليست خلقاً من العدم، بل خلقاً جديداً يحوِّل ما هو مخلوق من العدم إلى المسيح.

آدم والمسيح: الموت والحياة

نستطيع أن نسمع صوت آدم الأول بوضوح شديد جداً في كلمات قانون قيافا: "خيرٌ لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها" (يو ١١: ٥٠).

ويمكننا أن نسمع صوت آدم الثاني بوضوح أشد في قانون المسيح: "أنا هو الراعي الصالح والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف" (يو ١٠: ١١)، بل يترك التسعة والتسعين ويذهب خلف الواحد الضال.

آدم الأول	آدم الثاني
– زنى، عهارة، نجاسة، دعارة، عبادة أوثان، سحر، عداوة، خصام، غيرة، سخط، تحزب، شقاق (انشقاقات)، بدعة، حسد، قتل (غلاطية ٥: ١٩ – ٢١).	– محبة، فرح، سلام، طول أناة، لطف، صلاح، إيمان، وداعة، تعفف. – الذين هم للمسيح قد صلبوا الأهواء مع الشهوات (غلاطية ٥: ٢٢ – ٢٣).

ويعكس بطرس الرسول صوت آدم الأول:

حاشاك يا رب .. لا تُصلب بل تملك بالقوة.

ويقول آدم الثاني:

اذهب عني يا شيطان .. أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس.

(متى ١٦: ٢١ – ٢٣).

وقانون آدم الثاني: من لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني (متى ١٠: ٣٨).

المقارنة طويلة جداً ويراها قارئ الإنجيل بسهولة، لكن أهم مقارنة تخص موضوع الحرمان والقطع من الشركة ومن التناول تلك التي يقدمها الرسول بولس.

آدم الأول	آدم الثاني
* بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية الموت.	* بالإنسان الواحد يسوع المسيح ازدادت عطية الحياة.
* بخطية واحد مات كثيرون.	* النعمة ازدادت لكثيرين.
* الحكم من واحد للدينونة.	* الهبة فمن جرى خطايا كثيرة.
* بخطية الواحد ملك الموت.	* فيض النعمة وعطية البر. * سيملكون في الحياة بالواحد يسوع المسيح. * تملك النعمة بالبر للحياة الأبدية. (رو ٥: ١٢ — ٢١)

وموضوع آدم أب الجنس البشري، هو أحد مكونات فكر علماء الشريعة من اليهود في الفترة السابقة على تجسد ربنا يسوع المسيح[١]. والعلاقة بين آدم والجنس البشري ليست علاقة فكرية فقط، بل هي علاقة جسدانية أيضاً[٢]. ومن الجدول السابق نستطيع أن نرى العلاقة بين:

الواحد الكثيرين

والواحد، آدم جاء بالخطية والموت والحكم .. بالمعصية.

والواحد، يسوع جاء بفيض الحياة، فيض النعمة، الحياة الأبدية بالطاعة لعمل النعمة.

التحول في الكيان الإنساني بسبب آدم الثاني

إذا كان آدم الأول قد جاء بالموت، فماذا حدث من تحول حقيقي وتجلي الحياة الجديدة في المسيح؟

آدم الأول	آدم الثاني
الإنسان الأول من الأرض ترابي	الإنسان الثاني الرب من السماء
الإنسان الأول نفساً حية	آدم الأخير روحاً محيياً. (١ كو ١٥: ٤٥ – ٤٧)

وخلاصة التعليم الرسولي هو:

كما في آدم يموت الجميع هكذا في المسيح سيُحيا الجميع (١ كو ١٥: ٢٢).

---

(1) Davies, Paul and Rabbinic Judaism pp 55 ff.

(2) De W. Burton, Spirit, Soul and Flesh pp 53ff.

فالحياة لا تُستمد من آخر غير المسيح.

وطبعاً نستطيع أن نفهم أن الترابي والأرضي تلعب فيه القوة دورها حسب: الحجم، الوزن، القيمة، الكم .. الخ أمَّا الروحاني، الذي يُحيي وليس فيه الموت، بل هو الحياة، تمارس النعمة دورها حسب: المحبة – العطاء – الوحدة – عدم الفساد.

ويمكننا أن نرى القوة في قانون قيافا: خيرٌ أن يموت واحد.

كما يمكننا أن نرى النعمة في قانون المسيح: الراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف.

والحجم والوزن، وهما من أهم ما يُعرف باسم قانون الجسد، أو حياة الجسدانيين، الجسم الكبير أقوى وأعظم.

والمحبة والعطاء، وهما من صفات آدم الثاني، وهو قانون الحياة الذي يحرر من الموت ومن التصنيف حسب الحجم:

قانون قيافا: يقتل المعارض مهما كانت قيمة المعارضة.

قانون المسيح: لا يقتل بل يُحيي "جئت لكي تكون لهم حياة وليكون لهم أفضل" (يوحنا ١٠: ١٠).

الفصل الثاني

الوجود مع المسيح

حسب التسليم الرسولي

أعترف بفضل كتاب الأب القمص متى المسكين الذي صدر بعد قرار تجريده من الكهنوت، بل ومن الرهبنة .. وكان قد كتب هذا الكتاب وهو يجوز هذه المحنة "مع المسيح في آلامه وموته وقيامته"[١]. وجاء الكتاب رغم صغر حجمه بمثابة نور كبير يجعل صليب المسيح يلمع في عتمة الدهر .. وقبل ذلك دعى الأب متى القراء إلى تأمل قوة ومعنى "حروف الجر في رسائل القديس بولس الرسول"، وهكذا "مع المسيح – Συν Χριστω مثل "في المسيح – εν Χριστω" تعطى لنا صورة رسولية عن شركة الكنيسة في آدم الجديد في عطية الحياة. وإذا كانت عبارة الرسول "في المسيح" تؤكد الأهمية القصوى لاستيعاب دور الوسيط، فإن عبارة "مع المسيح" تؤكد لنا الأهمية الأعظم لحياة الشركة التي بيننا وبين الرب يسوع.

---

(١) نشير في هذا الخصوص إلى كتابنا الذي نشرناه في القاهرة ٢٠١٢ بعنوان: مع المسيح في آلامه وموته وقيامته، الأصول الرسولية لكتاب الأب متى المسكين. وقد تعرضنا فيه بالتفصيل لحرفي الجر "في – مع" الذين نحت منهما القديس بولس الرسول الكثير من التعابير الفريدة التي تعبر عن حياتنا وشركتنا مع المسيح وفيه.

يقول الرسول "الذي لم يشفق[١]، على ابنه، بل بذله لأجلنا أجمعين كيف لا يهبنا أيضاً **معه** كل شيء" (رو ٨: ٣٢).

نحن لا نُوهب شيئاً مهما كان إلَّا من خلال شركتنا مع المسيح. ونحن لا ننطلق إلى الحياة الجديدة بدون المسيح؛ لأن هذا يعني العودة إلى الموت، بل إن شهوة الحياة بأسرها هي أن "أنطلق وأكون مع المسيح" (فيلبي ١: ٢٣)، وبسبب الشركة "نحن عاملون **معه**" أي في المصالحة (٢كو ٥: ٢١ – ص ٦: ١).

لا يكفي أن نكون **معه**، وأن نفسر كل شيء على أساس الشركة وحدها، بل يجب أن نعود دائماً إلى المصدر، إلى الحياة والى الوسيط الذي بدونه لا توجد لنا حياة.

وأهم فقرات حياة الشركة مع المسيح هي (رو ٦: ٣ – ١١)، و (كولوسي ٢: ١٢ – ٣: ٥).

شركة في موته المحيي

نحن نموت مع المسيح لكي نحيا **معه** (رو ٦: ٨)، ولكن الموت هو موت شركة في آلام المسيح "لأعرفه وقوة قيامته وشركة آلامه متشبهاً بموته لكي أصل أو أبلغ إلى قيامة الأموات" (راجع فيلبي ٣: ١٠). هذه الآلام هي في الزمان الحاضر (رو ٨: ١٧)، وهي الموت يومياً مع المسيح (١كو ١٥: ٣١ – ٢كو ٤: ١٠ – ١٢). لكن هذه الآلام هي آلام التحول من آدم الأول إلى آدم الجديد، من قانون قيافا إلى قانون المسيح، ولكي نصل إلى الحياة الجديدة لابد أن نمر من باب الصليب الضيق (رو ٦: ٦ – ٧)،

---

(١) من الخطأ أن نتصور إن فعل "لم يشفق" يعني قسوة الآب، فهذا غير وارد في كل الكتاب المقدس والترجمة العربية البيروتية تعكس هنا تعليم العصر الوسيط، لأن الفعل اليوناني مأخوذ من الترجمة السبعينية وهو مثل الفعل العبراني الخاص بذبح اسحق؛ لأن سفر التكوين يقول: "إني من أجل أنك فعلت هذا الأمر **ولم تمسك** ابنك وحيدك، (أي لم تبخل، أو لم تضن بإسحق)" تكوين ٢٢: ١٦. وهو ما دعى الترجمة الكاثوليكية لأن تصيغ هذا النص هكذا: "الذي لم يضن بابنه نفسه، بل أسلمه إلى الموت من أجلنا أجمعين". وهو ذات ما فعلته الترجمة العربية الجديدة الصادرة عن دار الكتاب المقدس ١٩٩٣ حيث تقول: "الله الذي ما بخل بابنه، بل أسلمه إلى الموت من أجلنا جميعاً".

"لأَنَّنَا نَحْنُ الأَحْيَاءَ نُسَلَّمُ دَائِماً لِلْمَوْتِ مِنْ أَجْلِ يَسُوعَ، لِكَيْ تَظْهَرَ حَيَاةُ يَسُوعَ أَيْضاً فِي جَسَدِنَا الْمَائِتِ" (٢ كو ٤: ١١)، ويجب ان يعمل الموت فينا (٢ كو ٤: ١٢)، لكي يفصل بين آدم الأول وآدم الجديد. لكن كل هذا لا يمكن أن يتم فينا وحدنا، بل فينا معه، لأن شركتنا مع المسيح هي التي تجعل الرسول يقول: "إن المسيح حياتنا" (كو ٣: ٤)، وهذا ما تؤكده الليتورجية: "لأنك أنت هو حياتنا كلنا" (أوشية الإنجيل). فالمسيح هو محور ومركز الدائرة التي قطرها جماعة المؤمنين. الكل يتجه إلى المسيح ليكون مع المسيح. والاتحاد به، أي بالمسيح هو دعوة المسيح لنا: "صرنا متَّحدين معه بشبه موته" (رو ٦: ٥)، وموت المسيح على الصليب هي دعوة للاتحاد بالمصلوب، لكي يكون لنا النصيب في قيامته (رو ٦: ٥)، لكي نحيا معه (رو ٦: ٨). وهكذا نحن نموت معه (رو ٦: ٣، ٦، ٨)، ونقوم معه (رو ٦: ٥، ٨، ١١).

والكلمة اليونانية الخاصة بالاتحاد هي συμφυτος وهي حسب دراسة علماء اللغة اليونانية تعني اثنان، عنصران ينموان معاً بسبب وجود وحدة عضوية، لأن نمو النفس والجسد معاً لا يزيد أو ينقص الاتحاد[١]، بل هو بسبب الاتحاد نفسه. لكن أهم ما يجب أن نلاحظه هو أن الاتحاد هو اتحادٌ بجسد المسيح "يا أخوتي انتم أيضاً قد متم للناموس بجسد المسيح" (رو ٧: ٤)، وعندما قام المسيح من الأموات لم يعد للموت قدرة عليه؛ لأن المسيح أباده، وبذلك فقد الموت سلطانه، ولذلك يقول الرسول: "لكي تصيروا لآخر للذي قد أقيم من الأموات لنثمر لله" (رو ٧: ٤).

وهكذا بموت المسيح فقد الناموس سلطانه الكامل على المسيحي، وإلَّا فقدت كلمات الرسول "قد متم للناموس" معناها، وموتنا للناموس يعني عدم قدرة الناموس على أن يحكم علينا بشيء؛ لأننا أموات.

---

(١) هكذا يظهر معنى الكلمة عند أرسطو عن اتحاد الكائنات البحرية: الجسم والقوقعة، أو اتحاد النفس والجسد عند أفلاطون أو نمو الأعضاء الجديدة من براعم الشجرة راجع دراسة العالم الألماني *Lohmegen* بعنوان مع المسيح في كتاب *A. Deissman* .

مع المسيح شركة ميراث البنوة

في بستان جثيماني صرخ الرب: "أبَّا أيها الآب"، فأعطى لنا هذه الكلمات التي نصرخ بها نحن معه وبقوة الروح القدس. يقول الرسول: "إِذْ لَمْ تَأْخُذُوا رُوحَ الْعُبُودِيَّةِ أَيْضاً لِلْخَوْفِ (روح الديانة اليهودية والشريعة الموسوية)، بَلْ أَخَذْتُمْ رُوحَ التَّبَنِّي الَّذِي بِهِ نَصْرُخُ: «يَا أَبَا الآبُ!» (رو ٨: ١٥). ويعيد الرسول هذه الحقيقة في نصٍّ آخر جميل؛ لأنه يضع قاعدة الخلاص الأولى، وهي تجسد الابن: "وَلَكِنْ لَمَّا جَاءَ مِلْءُ الزَّمَانِ، أَرْسَلَ اللهُ ابْنَهُ مَوْلُوداً مِنِ امْرَأَةٍ، مَوْلُوداً تَحْتَ النَّامُوسِ، لِيَفْتَدِيَ الَّذِينَ تَحْتَ النَّامُوسِ، لِنَنَالَ التَّبَنِّيَ. ثُمَّ بِمَا أَنَّكُمْ أَبْنَاءٌ، أَرْسَلَ اللهُ رُوحَ ابْنِهِ إِلَى قُلُوبِكُمْ صَارِخاً: «يَا أَبَا الآبُ» (غلا ٤: ٤ – ٦).

وبتجسد الابن أخذنا هذه الصفة الشخصية، الصفة الأقنومية الخاصة، بالأقنوم الثاني، أي صفة البنوة، وهذه الهبة هي وحدها التي تجعل الرسول يقول صراحة: "إِذاً لَسْتَ بَعْدُ عَبْداً بَلِ ابْناً، وَإِنْ كُنْتَ ابْناً فَوَارِثٌ لِلَّهِ بِالْمَسِيحِ" (غلا ٤: ٧). ويؤكد الرسول بولس نفس القاعدة الإيمانية في الإصحاح الثامن من رسالة رومية. "اَلرُّوحُ نَفْسُهُ أَيْضاً يَشْهَدُ لأَرْوَاحِنَا أَنَّنَا أَوْلاَدُ اللهِ. فَإِنْ كُنَّا أَوْلاَداً فَإِنَّنَا وَرَثَةٌ أَيْضاً وَرَثَةُ اللهِ وَوَارِثُونَ مَعَ الْمَسِيحِ" (رو ٨: ١٦–١٧).

هذه الوراثة لها أساس في العهد القديم، وهي حقوق البكر، الذي يرث ويدبر ميراث الأب، حتى في حياة الأب، ونرى هذا في احتجاج الابن الأكبر في مَثَل الابن الضال، على عودة أخيه. لكن هنا الميراث هو أننا عند الآب مثل الابن البكر. ويؤكد الرسول هذه الحقيقة بقوله: "لأَنَّ الَّذِينَ سَبَقَ فَعَرَفَهُمْ سَبَقَ فَعَيَّنَهُمْ لِيَكُونُوا مُشَاكِهِينَ صُورَةَ ابْنِهِ لِيَكُونَ هُوَ بِكْراً بَيْنَ إِخْوَةٍ كَثِيرِينَ" (رو ٨: ٢٩). ولعل أهم ما يجب أن نلاحظه هنا هو أن "العبد" لا يرث حسب قول الرسول "لا يرث ابن الجارية مع ابن الحرة" (غلا ٤: ٣٠).

"مع المسيح" شركة مع الآب والابن والروح

الابن ربنا يسوع المسيح هو محور عقيدة الثالوث، فهو الذي أعلن لنا الآب والروح القدس بتجسده وموته وقيامته وبإرسال الروح القدس المعزِّي علينا، ليسكن فينا.

وإذا قال الرسول: "هذه هي مشيئة الله في المسيح يسوع" (١ تس ٥: ١٨)، فهو يؤكد أن ما يعمله الآب معنا، بسبب وجودنا في المسيح ومع المسيح، فهو بقصدٍ واحدٍ، وهو أن يجمعنا مع الثالوث. وهكذا يقول الرسول: "إلى كنيسة التسالونيكيين في الله أبينا والرب يسوع المسيح. نعمة لكم وسلام من الله أبينا والرب يسوع المسيح" (٢ تس ١: ١ – ٢)، فالله أبينا بسبب وجودنا في المسيح ومع المسيح، الذي هو من الله الآب "الكل من الله الذي صالحنا لنفسه بيسوع المسيح .. أي أن الله كان في المسيح مصالحاً العالم لنفسه". وفي الحقيقة إن كل النصوص الرسولية التي تتكلم عن موت المسيح على الصليب أو شركتنا في آلام الرب وقيامته لها نبرة ثالوثية عالية وواضحة جداً مثل النص السابق (٢ كو ٥: ١٤ – ٢١)، أو "متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح الذي قدمه الله كفارة بالإيمان" (رو ٣: ٢٤).

وفي الختام نقول إن أهم ما يقال عن "مع المسيح" هي كلمات الرسول يوحنا: "أمَّا شركتنا نحن، فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح".

الفصل الثالث

المسيح وجسده: الكنيسة

بادئ ذي بدء، الجسد الإنساني هو حقيقة لا يمكن أن تتحول إلى رمز أو استعارة أو تشبيه، فقد نجد في الطبيعة ما يرمز إلى الجسد الإنساني، ولكن الجسد الإنساني ذاته لا يرمز إلى شيء. وجسد المسيح هو حقيقة لمسها الرسل، فقد عاينوه، وكان لهم شرف أن يلمسهم المسيح بيده عندما غسل أرجلهم.

ولا يوجد لدينا في الكتاب المقدس بعهديه نصاً واحداً يجعل الجسد رمزاً، أو استعارةً أو كنايةً أو مجازاً، بل لدينا رموزٌ تشرح حقيقة الجسد. وليس لدينا رموز عن الجسد تجعل الجسد رمزاً لأي شيء في الطبيعة أو الخليقة وتجعل ما في الطبيعة يشبه الجسد الإنساني، بل تتشبه الطبيعة والخليقة بالجسد، أمَّا الجسد، فهو يتشبه بالابن المتجسد.

آراء باطلة عن الجسد

١– إذا كان الإنسان هو تاج الخليقة حسب (تكوين ١: ٦)، وحسب كلمات المزمور الثاني، فإن الخليقة هي التي تتشبَّه بالإنسان. ولذلك إذا تشبَّه الإنسان بالخليقة سقط في الوثنية .. وهو ما حدث في التاريخ القديم .. وما زال يحدث في العصر الحديث عندما يشبَّه الإنسان بما يخلق من آلات ونظم .. وعندما تتحول الوسيلة، أي

الاختراعات إلى غاية تسيطر على الحياة الإنسانية.

٢– وحقيقة تجسد ابن الله التي حاولت الهرطقات القديمة أن تنكرها ابتداءً من بدعة "المشبِّهة" *Docetism* إلى البدعة الاوطاخية .. كانت هذه الهرطقات تهدم سر الإفخارستيا، لأن الإفخارستيا هي جسد المسيح ودمه .. فإذا كان التجسد خيالاً وشبحاً، أو كان الجسد قد ذاب في اللاهوت حسب عبارة أوطاخي "قطرة عسل في بحر من الماء"، لتعذَّر وجود الإفخارستيا على المذبح، وكممارسة تقول عنها الكنيسة "سر الأسرار" و"سر التقوى".

"ووضع لنا هذا السر العظيم الذي للتقوى" (القداس الباسيلي)، وهي ذات العبارة عند الرسول بولس: "عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد" (١ تيمو ٣: ١٦). لأن الإفخارستيا، كما يقول قداس يوحنا ذهبي الفم: "الرب الإله قد ظهر لنا، قد رأينا النور الحقيقي". وهي ذات العبارات التي نقرأها عند القديس كيرلس السكندري، إذ يقول:

> "نحن نعترف بأن جسد المسيح هو جسدٌ معطي الحياة؛ لأنه هيكل كلمة الله الحي. ونعترف أيضاً بأنه يعطي لنا النور؛ لأنه جسد الذي هو بالطبيعة وبالحق، النور. وعندما طلى بالطين عيني المولود أعمى، أي مسحه باللُّعاب، فقد أعلن لنا أن جسده يُشرق بالنور لمن يلمسه؛ لأنه جسد النور الحقيقي" (شرح إنجيل يوحنا الإصحاح السادس، مجلد ٧٣ عامود ٩٦٤).

وهكذا قبل أن نتكلم عن الكنيسة جسد المسيح، علينا أن نفحص ضمائرنا: هل نحن نعتقد فعلاً بتأنُّس المسيح؟ وهل نؤمن فعلاً بأن الإفخارستيا هي جسده الحقيقي؟ إذا كان الجواب بالإيجاب، لم يعد لدينا مشكلة خاصة بالكنيسة جسد المسيح. أمَّا إذا كان الجواب بالسلب، صارت المشكلة الأصلية هي عقيدتنا في تجسد الرب، قبل أن تكون عقيدتنا في الكنيسة، وصار أحد جوانب هذه المشكلة الأصيلة هو ممارستنا للإفخارستيا، وقبولنا لحقيقة "هذا السر العظيم الذي للتقوى".

ثنائية الجسد والروح، والعودة إلى لاهوت الآباء

جاء العصر الحديث، أي مطلع القرن العشرين بأكبر حركة تصحيح في دراسات الكتاب المقدس والتاريخ الكنسي وتاريخ العقيدة المسيحية واللاهوت والحياة الروحية، ولا زال الحوار والجدل قائماً يصحح كل تراث ودراسات القرون السابقة في أوربا.

كانت أهم القضايا الخاصة "بالإنسان"، هي اكتشاف الفرق بين ثنائية الفكر اليوناني الفلسفي عند أرسطو، وأفلاطون، والفكر العبراني السامي في العهد القديم الذي ورثه الآباء الرسل والذي ينتمي إلى البيئة الروحية لليهودية في فلسطين.

ولعل أول تصحيح لدراسات العهد القديم كانت المجلدات الأربع للعالم الدانمركي *Pedersen* ثم جاءت بعدها دراسة العالم الانجليزي *J. Robinson* عن الجسد في رسائل بولس، والتي سبقتها دراسة *E. de. W. Burton* التي أشرنا إليها لتؤكد أن ثنائية الجسد والروح غائبة تماماً من العهد الجديد، وإن الرسول بولس أول متهم باستعارة فكر وفلسفة اليونان، هو برئ تماماً من هذه التهمة[1].

وردت كلمة "الجسد" في الترجمة السبعينية ١٤١ مرة وكلها: إمَّا عن الجسد الإنساني، أو ضمير المتكلم. أمَّا في العهد الجديد، ففي كل مرة وردت فيها كلمة "جسد" كانت عن الجسد الإنساني، ما عدا يعقوب ٣: ٣ ولوقا ١٧: ٣٧ حيث الإشارة صريحة إلى الجسد الحيواني. وحتى عندما يتحدث الرب عن الجسد في (متى ٦: ٢٥)، فان الحديث هو عن الشخص؛ لأن الجسد، أو الأجساد لا تختار الألوان والأشكال، ناهيك عن الموضة .. الخ، فإذا قال الرب: "لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون .. ولا لأجسادكم بما تلبسون.." (متى ٦: ٢٥)، فالكلام صريح وقاطع؛ لأنه موجَّهٌ إلى سامعين وإلى أشخاص. وإذا قال الرسول بولس: "أطلب إليكم أيها الأخوة برأفة الله أن تقدموا

---

(1) C. H. Dodd, The Bible and the Greeks.

أجسادكم ذبيحة حية مقدسة" (رو ١٢: ١)، فإن الرسول يعني هنا الشخص كله؛ لأنه يقول بعد ذلك: "عبادتكم العقلية (خدمتكم العقلية)". وإذا قال الرسول: "وإن قدمت جسدي حتى احترق" (١كو ١٢: ٣)، فالكلام هو عن الإنسان، وعن الشخص كله، لأنه حسب عبارة الأستاذ *Pederson*، الجسد هو الشكل المنظور للنفس الإنسانية في العهد القديم. وهكذا يقول الرسول: "الآن يتعظم المسيح في جسدي سواء كان بحياة أم موت" (فيلبي ١: ٢٠)، والمقصود هو الحياة كلها؛ لأن المسيح سيظهر في حياة بولس أو في موته.

وهكذا بدأت الدراسات الأوربية الكاثوليكية والبروتستانتية تعود إلى تراث الآباء؛ لأن رفض ثنائية الفكر اليوناني الفلسفي تعني في حقيقة الأمر، رفض تقسيم المسيح إلى لاهوت وناسوت، وهو التقسيم القديم الذي رفضه الآباء الذين حاربوا الغنوسية والنسطورية، وصار من الضروري العودة إلى "المسيح الواحد من اثنين لاهوت وناسوت"، وهي عبارة القديس كيرلس السكندري[١].

المسيح والكنيسة، واحد واثنين

ثنائية الغنوسية هي ثنائية بقاء كل كيان مادي، غريب وبعيد عن الكيان الروحي، وهو ما يظهر في النسطورية بعد ذلك، في شكل ثنائية ابن الله وابن الإنسان. ومن العبارات المشهورة لنسطور: "الابن الكلمة هو سيد ورب يسوع المسيح"[٢] مما يؤكد عدم اتحاد اللاهوت بالناسوت. لكن بقاء ثنائية المسيح والكنيسة حسب ثنائية الغنوسية تقضي تماماً على الأسرار وبشكل خاص الإفخارستيا، وحسب ثنائية النسطورية – وهذه هي كلمات القديس كيرلس السكندري، تصبح الإفخارستيا هي وليمة آكلي لحوم بشر؛ لأن جسد يسوع المسيح بدون اللاهوت هو جسد بشري بلا قيمة وبلا فاعلية. يقول

---

(١) كان أكثر الذين راجعوا الفكر اللاهوتي المعاصر وتصحيحه على تراث الآباء O. Cullmann و A. Richarsan وغيرهم من الذين اكتشفوا الآباء من خلال الدراسات الجيدة والرصينة للعهد الجديد.

(٢) جمع كل شذرات وعظات نسطور المؤرخ الالماني Loofs.

القديس كيرلس:

"لا يمكن لطبيعة الجسد في حد ذاتها أن تعطي الحياة، ولا أن تُحيي، بل تحتاج العنصر المحيي. أمَّا إذا درسنا سر التجسد، أدركنا كيف حلَّ ذلك العنصر المحيي في الجسد ... لكن عندما يتحد الكلمة المحيي بالجسد يصبح الجسد معطي الحياة، لأن الجسد ارتفع إلى قدرة الكلمة. وكما أن العسل يعطي حلاوته لكل الأطعمة التي يتصل بها، والتي هي ليست حلوة المذاق، ولكن العسل ينقل إليها حلاوته عندما يختلط بهذه الأطعمة، أليس من المعقول أن نقول إن طبيعة الكلمة المحيي تعطي الحياة للناسوت، أي ناسوت الكلمة الذي حلَّ فيه، ويصبح الناسوت حيا ومحيياً؟" (شرح إنجيل يوحنا مجلد ٧٣ عامود ٥٧٧).

ويقول في اعتراضه على تعليم نسطور:

"لأننا إن لم نأكل جسد مَن هو الحياة لا نحيا، وإن أكلنا جسداً بشرياً، صرنا مثل آكلي لحوم البشر".

أعضاء المسيح حسب التعليم الرسولي

يقول الرسول بولس: "أَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ بِاسْمِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ أَنْ تَقُولُوا جَمِيعُكُمْ قَوْلاً وَاحِداً ... كُونُوا كَامِلِينَ فِي فِكْرٍ وَاحِدٍ وَرَأْيٍ وَاحِدٍ" (١ كو ١: ١٠)، وبهذا يطرح الرسول الكمال المسيحي في صورته الحقيقية، وهي عدم وجود انقسامات، وحياة الجماعة بفكر واحد ورأي واحد .. ولم تكن هذه بكل أسف هي حالة كنيسة كورنثوس كما نعرف من باقي كلمات الرسول ومن التاريخ الكنسي، وهي حالة الكنيسة عبر فترات التاريخ. ولذلك تضع الليتورجية هذا الاحتياج الروحي البالغ الأهمية:

"نسألك أيها المسيح إلهنا ثبِّت أساس الكنيسة. وحدانية القلب التي للمحبة فلتتأصل فينا".

ويدرك الرسول خطورة الخصومات والانقسامات ويردها إلى مصدرها الحقيقي، وهو التحزُّب لقيادات موجودة في وسط الكنيسة:

كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ يَقُولُ:

«أَنَا لِبُولُسَ وَأَنَا لأَبُلُّوسَ وَأَنَا لِصَفَا وَأَنَا لِلْمَسِيحِ»

وكأننا هنا أمام جماعات: لبولس – أبولس – صفا — المسيح. هذه الفرق الأربعة بما فيها الفرقة التي تنتمي للمسيح، تعبِّر عن الانتماء لرفض الآخرين، فالانتماء هنا ليس من أجل الوحدة، بل انتماء من أجل تعميق الخلاف.

ويطرح الرسول السؤال الهام: "هَلِ انْقَسَمَ الْمَسِيحُ؟ أَلَعَلَّ بُولُسَ صُلِبَ لأَجْلِكُمْ أَمْ بِاسْمِ بُولُسَ اعْتَمَدْتُمْ؟" (١كو ١: ١٣). وبهذا يضع الرسول أساس وحدة الكنيسة:

١– المسيح لا ينقسم.
٢– موت المسيح على الصليب.
٣– المعمودية المقدسة

والعلاقة بين هذه العناصر الثلاثة واضحة لكل من قرأ رسائل القديس بولس وآمن بما تُعلم به المسيحية. فقد جاء المسيح لكي يجمع ليس فقط البشرية الممزقة، بل السماء والأرض (أف ١: ١٢)، وبموته على الصليب أبطل العداوة (أف ٢: ١٤ – ١٥). وفي نفس رسالة الرسول بولس إلى كورنثوس يؤكد وحدة جسد المسيح:

"لأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الْجَسَدَ هُوَ وَاحِدٌ

وَلَهُ أَعْضَاءٌ كَثِيرَةٌ

وَكُلُّ أَعْضَاءِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا كَانَتْ كَثِيرَةً

هِيَ جَسَدٌ وَاحِدٌ كَذَلِكَ الْمَسِيحُ أَيْضاً" (١ كو ١٢: ١٢).

ونحن ننضم إلى هذا الجسد الواحد بالمعمودية، إذ يقول الرسول بعدها مباشرة: "لأَنَّنَا جَمِيعَنَا بِرُوحٍ وَاحِدٍ أَيْضاً اعْتَمَدْنَا إِلَى جَسَدٍ وَاحِدٍ (رغم تنوع الانتماء العرقي) يَهُوداً كُنَّا أَمْ يُونَانِيِّينَ عَبِيداً أَمْ أَحْرَاراً. وَجَمِيعُنَا سُقِينَا رُوحاً وَاحِداً" (١ كو ١٢: ١٣).

لقد جاء المسيح لكي ينزع ثلاثة أشياء رئيسية ويقضي عليها تماماً:

١– الموت وشوكة الموت هي الخطية.
٢– الهاوية.
٣– الخطية وقوة الخطية هي الناموس (١ كو ١٥: ٥٦).

والموت هو أساس الشِّجار والتحزُّب والانفصال، لأن الموت هو عرش الخطية، لأن الخطية تملك مثل ملكٍ بقوة وسلطان الموت، وهذا هو الذي يحول قوة الخطية إلى الذات، ويجعل من كل الخطايا بدون استثناء، محاولات الإنسان للابتعاد عن الموت (رو ٥: ٢١). ولذلك السبب عينه يطلب ربنا يسوع أن نحمل "الصليب" أداة الموت ونسير خلفه حاملين ذلك الخوف من فقدان الحياة، وهو صليبٌ ثقيل وصعب لكي ندرك من حمله نهاية ذلك الخوف بقوة قيامة ربنا يسوع المسيح. ويلمح الرسول هذا العراك العنيف بين الموت والحياة ويقول: "نَحْنُ الَّذِينَ فِي الْخَيْمَةِ نَئِنُّ مُثْقَلِينَ، إِذْ لَسْنَا نُرِيدُ أَنْ نَخْلَعَهَا (أي الحياة الإنسانية)بَلْ أَنْ نَلْبَسَ فَوْقَهَا، لِكَيْ يُبْتَلَعَ الْمَائِتُ مِنَ الْحَيَاةِ (لكن هذه محاولات فاشلة). وَلَكِنَّ الَّذِي صَنَعَنَا لِهَذَا عَيْنِهِ (للحياة الجديدة) هُوَ اللهُ، الَّذِي أَعْطَانَا أَيْضاً عَرْبُونَ الرُّوحِ (عربون الحياة السمائية بالروح القدس)" (٢ كو ٥: ٤ – ٥).

ولقد سبى المسيح الهاوية (أف ٤: ٨)، أي أغلق فم الموت إلى الأبد بقوة القيامة وبإطلاق سراح الأسرى الذين ماتوا على رجاء. ويقول الرسول عن سبي الجحيم

إن المسيح نزل إليها ثم صعد "لكي يملأ الكل" (أف ٤: ١٠)، ذلك الملء الذي تقول عنه الليتورجية: "ملأت الكل بلاهوتك"، فقد ملأ الحياة الإنسانية بغلبة الموت، وملأ فكر الإنسان بنور وعطايا الروح القدس، وملأ مصير الإنسان بميراث الحياة التي لا تفنى وأعطاه مكاناً فوق في السموات، وملأ الكنيسة بالإسرار والهبات الروحية .. هذا التجديد كله يعود إلى حقيقة هامة، فقد كسر المسيح شوكة الموت التي كانت تفصل كل حياة عن مصدرها، أي عن الله مصدر الحياة وحافظها. كانت قوة الخطية في أنها تتعارض تماماً مع الناموس، وكانت مطالب الناموس بالعدل والحياة المقدسة، وهي أصلاً ضد الخطية، إلَّا أن عقوبة التعدي، أي عقوبة الخطية جعلت الناموس والخطية من أعداء الإنسان، ولذلك يقول الرسول: "كَانَتْ أَهْوَاءُ الْخَطَايَا الَّتِي (يحرِّمها) بِالنَّامُوسِ تَعْمَلُ فِي أَعْضَائِنَا لِكَيْ نُثْمِرَ لِلْمَوْتِ" (رو ٧: ٥).

ولكن بموت المسيح على الصليب: "تَحَرَّرْنَا مِنَ النَّامُوسِ إِذْ مَاتَ الَّذِي كُنَّا مُمْسَكِينَ فِيهِ"، لقد ماتت مطالب الناموس بموت المسيح (رو ٧: ٦).

وهكذا أرسى المسيح عودة الإنسان إلى الله من خلال "خدمة المصالحة" (٢ كو ٥: ١٤)، ورتَّب الوحدة على أساس نعمة الحياة، وليس على أساس الشريعة الموسوية. وصار هو آدم الثاني الذي نُخلق فيه وبه وبواسطة الروح القدس. ويدافع رسول المسيح عن هذه النقطة بالذات ويفرز لها الإصحاح الثالث، بل رسالته إلى غلاطية.

لقد جاء الوعد بالبركة بإسحق، وإسحق هو جد المسيح (غلا ٣: ١٦)، وكانت وراثة البركة كما يقول بولس: "لأَنَّهُ إِنْ كَانَتِ الْوِرَاثَةُ مِنَ النَّامُوسِ فَلَمْ تَكُنْ أَيْضاً مِنْ مَوْعِدٍ. وَلَكِنَّ اللهَ وَهَبَهَا لإِبْرَاهِيمَ بِمَوْعِدٍ" (غلا ٣: ١٨)، وماذا كانت المشكلة؟ يجيب الرسول في جملة اعتراضية: "لأَنَّهُ لَوْ أُعْطِيَ نَامُوسٌ قَادِرٌ أَنْ يُحْيِيَ، لَكَانَ بِالْحَقِيقَةِ الْبِرُّ بِالنَّامُوسِ" (غلا ٣: ٢١). لقد كان الناموس يعاقب خطية الإنسان بالموت وكانت حاجتنا للحياة وللغفران معاً. وكان الناموس عاجزاً تماماً "لأَنَّهُ مَا كَانَ النَّامُوسُ عَاجِزاً عَنْهُ فِي مَا كَانَ ضَعِيفاً بِالْجَسَدِ فَاللَّهُ إِذْ أَرْسَلَ ابْنَهُ فِي شِبْهِ جَسَدِ الْخَطِيَّةِ وَلأَجْلِ الْخَطِيَّةِ دَانَ

الْخَطِيَّةَ فِي الْجَسَدِ" (رو ٨: ٣).

وهكذا جاء المسيح بشريعة الحياة الجديدة تلك التي يقول عنها الرسول: "لأَنَّ كُلَّكُمُ الَّذِينَ اعْتَمَدْتُمْ بِالْمَسِيحِ قَدْ لَبِسْتُمُ الْمَسِيحَ. لَيْسَ يَهُودِيٌّ وَلاَ يُونَانِيٌّ. لَيْسَ عَبْدٌ وَلاَ حُرٌّ. لَيْسَ ذَكَرٌ وَأُنْثَى، لأَنَّكُمْ جَمِيعاً وَاحِدٌ فِي (مصدر الحياة الجديدة) الْمَسِيحِ يَسُوعَ. فَإِنْ كُنْتُمْ لِلْمَسِيحِ (مولودين من الروح مثل اسحق) فَأَنْتُمْ إِذاً نَسْلُ إِبْرَاهِيمَ، وَحَسَبَ الْمَوْعِدِ وَرَثَةٌ" (غلا ٣: ٢٧ -٢٩).

علاقتنا بجسد المسيح

يقول الرسول "أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ أَجْسَادَكُمْ هِيَ أَعْضَاءُ الْمَسِيحِ؟" (١ كو ٦: ١٥). ويسأل الرسول الذين يمارسون الزنى: " أَفَآخُذُ أَعْضَاءَ الْمَسِيحِ وَأَجْعَلُهَا أَعْضَاءَ زَانِيَةٍ؟!" (١ كو ٦: ١٥)، ويميز الرسول بين العلاقة الجسدية التي تجعل الرجل والمرأة جسداً واحداً، وبين العلاقة بين المؤمنين التي تجعل كل من التصق بالرب، فهو روح واحد (١ كو ٦: ١٧). فأصل الحياة الجديدة هي الروح القدس الذي كوّن ناسوت الرب في أحشاء العذراء.

والروح القدس هو الذي مسح الرب في الأردن، والروح القدس هو الذي أقام الرب .. فالرب هو آدم المحيي، وناسوته واهب الحياة؛ لأنه ناسوت الابن الحياة. ولذلك، فالاتحاد بالرب ليس هو على مستوى الاتحاد الجسداني بين الرجل والمرأة، ومفتاح التفسير هو الكلمة اليونانية Κολλαω - Joined "يلتصق"، وهي فعل معروف من الترجمة السبعينية (تك ٢: ٢٤)، ويستخدم أيضاً بمعنى الارتباط (مز ٧٢: ٢٨)، فالالتصاق بالرب ليكون المؤمن والمسيح روحاً واحداً، هو الذي يجعل كل مؤمن أعضاء المسيح، أعضاء جسد المسيح.

شرح القديس أوغسطينوس

كان أوغسطينوس هو أكثر الآباء الذين كتبوا عن المسيح والكنيسة. وكان أكثر الذين اهتموا بهذا الموضوع؛ لأنه كان يواجه هرطقة الدوناتيين التي تنكر وحدة جسد المسيح الكنيسة، وتنكر أن الكنيسة هي جسد المسيح. ويقدم أوغسطينوس رده في عظات عامة، وفي شرح سفر المزامير، ويضع قاعدتين أساسيتين لشرح الكتاب المقدس.

القاعدة الأولى: آدم الأول وآدم الثاني.

القاعدة الثانية: الرب والكنيسة.

يقول أوغسطينوس عن آدم الأول وآدم الثاني:

> "في تاريخ الإنسانية نجد تاريخ الإيمان المسيحي كله. لقد ضللنا في الإنسان الأول الذي صنع مشيئته وليس مشيئة خالقه، بينما الثاني خلصنا فيه هو عندما لم يصنع مشيئته بل مشيئة الذي أرسله" (De gratia churti. Dl. 44. 398).

شرح القديس أوغسطينوس قواعد أو مفاتيح الكتاب المقدس السبعة *The seven Rules* التي صاغها الأسقف *Ticonius* وأحياناً تكتب *Tichonius* .

وأول هذه المفاتيح هو: الرب وجسده. وحسب كلمات الأسقف *Ticonius* يقول:

> "نستطيع أن نقول إن الكنيسة كلها هي ابن "الإنسان"، لأن الكنيسة، وهي أبناء الله قد اجتمعت في جسد واحد، هو جسد ابن الله، الذي هو الإنسان الواحد، حسب كلمات الرسول "المقاوم والمرتفع على كل ما يدعى إلهاً أو معبوداً" (١ تس ٢: ٤)، وما يدعى إلهاً في هذه الكلمات

هو الكنيسة جسد ابن الله" (الآباء اللاتين مجلد ١٨: عامود ١٨).

أخذ القديس أوغسطينوس هذه القاعدة أو المفتاح الأول وتوسَّع في شرحها في عدة كتب أهمها كتاب التعليم أو العقيدة المسيحية: *De Doctrina Christiana*.

يقول أوغسطينوس:

"ما هي الكنيسة؟ هي جسد المسيح. وإذا أضفت إليها رأساً واحداً صار الجسد مع الرأس الواحد إنساناً واحداً، لأن الرأس الواحد مع الجسد الواحد هو إنسان واحد.

من هو الرأس؟ هو الذي وُلِد من العذراء مريم.

ومن هو جسده؟ هي عروس المسيح، أي الكنيسة .. وهكذا أراد الآب أن يصبح الاثنين واحداً، المسيح والكنيسة، إنساناً واحداً" (عظة ٤٥. مجموعة الآباء اللاتين ٣٨: عامود ٢٦٥).

ويقول أيضاً:

"كل البشر هم إنسان واحد في المسيح، ووحدة جميع المسيحيين تخلق ليس جماعةً، بل إنساناً واحداً" (شرح المزامير، مزمور ٣٩: مجموعة الآباء اللاتين مجلد ٣٦: عامود ٢١٩).

وأيضاً:

"هذا الإنسان الواحد هو كل البشر، وكل البشر هم هذا الإنسان الواحد، لأن الكل واحد، لأن المسيح واحد" (شرح المزامير، مزمور ١٢٧ مجلد ٣٧ عامود ١٦٨٦).

ولاحظ عبارة "إنسان واحد"؛ لأن كلمة إنسان تطلق كاسم على الجسد، كما أن الجسد يُطلق كاسم على الإنسان. وفي العظة الأولى على مزمور ٣٤ يقول أوغسطينوس:

"يا جسد المسيح أي الكنيسة .. يا شعب الله يا جسد المسيح، أيها المغترب النبيل، أنت لست من الأرض ولكن من فوق من السماء" (راجع مجلد ٣٦: ٣٣١ ومجلد ٣٧: ١٧٦٨).

ويسأل أوغسطينوس:

"ما هو رجاؤك يا جسد المسيح؟ أيها المسيح أنت جالس فوق في السموات على يمين الآب، إلَّا أنك لا تزال تتألم على الأرض في أعضاءك" (شرح مزمور ٩١: مجلد ٣٧: ١٦٨٣).

ويعلِّم الشعب قائلاً:

"يا أنت، يا أنتم، يا أيها الذين صرتم واحداً" (مزمور ١٢٧ مجلد ٣٧: ١٦٨٣).

وأيضاً:

"يا أيها الإنسان الواحد، يا أيها الوحدة، ماذا تفعل هنا على الأرض؟ ما هي الأعمال الصالحة التي تقوم بها في الكنيسة" (مزمور ١٠٣ مجلد ٣٧: ١٣٧٦).

هذا الإنسان الواحد، هذه الوحدة، هي المسيح كله، هي جسد المسيح. ويشرح أوغسطينوس:

"عندما يسكن المسيح في الإنسان الخفي (الإنسان الباطن أو الحياة

الروحية المستترة عن عين الناس)، بالإيمان وبالصلاة التي يقدمها المؤمن، يمتلك المسيح النفس المؤمنة، يصبح المؤمن هو المسيح كله، الرأس والجسد، وتصبح الجماعة المتعددة واحداً" (مزمور ٧٤ مجلد ٣٦: ٩٤٨).

ويؤكد هذا بقوله:

"يشبه ربنا يسوع المسيح الإنسان الكامل والصحيح، أي الذي له رأسٌ وجسد .. فجسده هي الكنيسة، ليس في مكان أو بقعة إقليمية محددة، وإنما الكنيسة هنا، والكنيسة الموجودة في أقاصي الأرض. ليس فقط الكنيسة التي تحيا الآن في الزمان الحاضر، بل كل جنس القديسين من هابيل حتى آخر واحد يولد ويحيا في المسيح حتى نهاية العالم، لأن الكل في مدينة واحدة. هذه المدينة هي جسد المسيح .. هي المسيح كله، لأن المسيح اتحد بالكنيسة" (عظة ٣ على مزمور ٩٠ مجلد ٣٧: ١١٥٩).

وتشبيه التجسُّد بمدينة واحدة قرأه أوغسطينوس في كتاب تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس الرسولي، وهو تشبيه هام جداً، لأنه يؤكد حلول الله المتجسد في جسد حقيقي واتحاده بهذا الجسد، أو حسب التعبير القبطي القديم "الكلمة صار جسداً ونَصَبَ مسكنه"، وهو تعبير كنا نسمعه من شيوخ الكنيسة عندما يقام القداس الإلهي، إذ كانوا يقولون: "الكنيسة منصوبة"؛ ولأن الجسد والرأس يجتمعان معاً في وحدة واحدة، ولأن الإفخارستيا هي الإعلان الإلهي عن هذه الوحدة التي أُعطيت، وتُعطى، وستبقى تُعطى حتى ينتهي التاريخ ويدخل الزمان في الأبدية.

وهذه الوحدة هي التي تدعو أوغسطينوس لأن يقول:

"لنفرح ونشكر، ليس فقط لأننا صرنا مسيحيين، بل لأننا صرنا المسيح. هل تفهمون يا إخوة العطية التي أُعطيت لكم؟ لا تندهشوا، بل افرحوا لأنكم صرتم المسيح. وإذا كان هو الرأس ونحن أعضاء جسده، فإننا

نحن وهو صرنا إنساناً واحداً صحيحاً .. هذا ما وعد به المسيح بفم الرسول: "انتم جسد المسيح وأعضاؤه أفراداً (١ كو ١٢: ٢٧)" (مقالات على انجيل يوحنا ٢١ مجلد ٣٥: ١٥٦٨).

وهذه الوحدة لا تُفهم "حسب الجسد"، ولا حسب القدرات الذهنية، لا سيما بواسطة الذهن المظلم الذي لم يأخذ استنارة الروح القدس. وهنا يقارن أوغسطينوس الطبيعة بالنعمة مؤكداً أن المسيح أقرب إلينا الآن أكثر مما كان "في أيام جسده" (عب ٥: ٧)، عندما كان لا زال مرئياً. ويقول عن قوة الإيمان والنعمة:

"لو أنه أراد أن يظل مرئياً ومنظوراً ويبقى في وسطنا لكانت قوة الإبصار للعيون أهم من قوة إدراك القلب. ولكن لأنه يعلم ما هو كامل ويريد أن يعطي ذلك الكمال، صار محجوباً عن العيون أي عيون الجسد؛ لكي يزرع الإيمان في القلب، لأنه بالمقارنة، الأعظم هو الإيمان بالمسيح من رؤيته دائماً بالعينين بيننا. وعندما نؤمن نراه بعيني الروح، فلا يجب أن يندم أحدٌ على صعود المسيح للسموات، كما لو كان بصعوده قد فارقنا. هو معنا حسب إيماننا. وهو معنا بشكل حقيقي أكثر من وقوفه بالجسد بجانبك وأنت تراه بالعينين. إذا كنت تؤمن أنه فيك، فأنت تجعله يدخل غرفة قلبك كضيف، وهناك يبقى معك. ها أنت تأخذه في قلبك، فكيف لا يكون معك". (العظات المتفرقة طبعة الأبG. Morin ص ٦٢٠).

كيف نفهم عبارات القديس أوغسطينوس؟

يقول أوغسطينوس إن الموضوع برمته عائد إلى الكيفية التي ندرس بها الأسفار المقدسة ونفهمها:

"لكي نفهم الأسفار، يجب أن نستوعب معنى الكامل أو الصحيح the whole لأن هذا المعنى بالذات يخص المسيح الكامل Complete

والصحيح Whole أي الرأس والأعضاء. أحياناً يتكلم المسيح باسمه كرأس الجسد، وأحياناً يتكلم باسم الجسد، ونحن جسده ونسمع أنفسنا نتكلم في الجسد الواحد، لأن الرسول يقول لنا "أنتم أعضاء جسده" (أف ٥: ٣٠) (مزمور ٣٧: مجلد ٣٦: ٣٩٩).

والأمر كله متوقف على كلمة الرب وإعلانات يسوع المسيح ربنا. وهكذا يرى أوغسطينوس، أو إن شئنا الدقة، إعلانات المسيح:

"يقول المسيح نفسه: "وليس بعد اثنين، بل جسد واحد" (متى ١٩: ٦)، هل غريب أن يكون الاثنان جسداً واحداً، أي أن يكون لهما لساناً واحداً، ونفس الكلمات، طالما أنهما جسد واحد الرأس والجسد؟ لنسمع الاثنان معاً كواحد، لنسمع الرأس وهو يتكلم كرأس، والجسد وهو يتكلم كجسد. ونحن هنا لا نفصل الاثنين إلى عنصرين two realities وإنما نميِّز بين رتبتين two different dignities، لأن الرأس يُخلِّص، والجسد يخلُص. الرأس يُطهِّر من الخطية، والجسد يعترف بالخطايا. ومع ذلك فإن الصوت الصادر عن الجسد الواحد هو صوتٌ واحد one voice ونحن لم نسمع ما هو صوت الرأس وما هو صوت الجسد، إلَّا أننا عندما نسمع الجسد يتكلم، فنحن لا نفصل الرأس عن الجسد وعندما نسمع صوت الرأس، لا تفصل صوت الرأس عن الجسد لأنه مكتوب "ولا يصير بعد اثنين بل جسد واحد" (المرجع السابق مجلد ٣٦: عامود ٤٠٠).

صوت الجسد الواحد حتى لو كان هو صوت الاعتراف بالخطية والضعف

يقول أوغسطينوس تعليقاً على كلمات مزمور (٣٧: ١٩):

"لا يخزون في زمن السوء وفي أيام الجوع يشبعون"، إن هذه الكلمات صادرة عن الجسد الواحد، وهي أيضاً تصل إلى الآب بواسطة الرأس الواحد يسوع المسيح لأن الرب "يخاطبنا لكي يعزِّينا، لا سيما الذين يقعون تحت التأديب الإلهي، أي الذين يأكلون خبزهم بعرق وجوههم لأن الرب يريد أن يتكلم معنا ويخاطبنا في داخل قلوبنا لكي يعلن لنا أنه لم يخلقنا فقط، بل أيضاً أنه يسكن فينا" (المرجع السابق).

ويقول إن كلمات مزمور ٣٧ خاصة بالجسد الواحد، الرأس والجسد الكامل:

"إذا قلنا إن كلمات المزمور الذي سمعناه ورتلناه هي كلماتنا نحن، فان هذه الفكرة –بكل أسفٍ– خاطئة؛ لأن هذه الكلمات هي كلمات الروح القدس، روح الله وليست كلماتنا نحن. ولكن إذا قلنا إن هذه ليست كلماتنا نحن، فإننا بكل يقين نخطئ، لأن الشكوى والصراخ هي شكوانا نحن الذي نختبر الشقاء" (المرجع السابق).

الهرطقة الدوناتية التي فصلت الرأس عن الجسد

لم تُنشر دراسات عربية جيدة عن هرطقة الدوناتيين *Donatists*. كانت لديهم آراء غريبة نسمعها اليوم، ونقرأها في مجلات وكتب قبطية. كانوا يعتقدون بشكل غير طبيعي بأن الكنيسة ليست جسد المسيح بسبب وجود خطايا وضعفات الشعب. وكانت الخطية هي المفتاح الوحيد الذي يفتحون به الأسفار، والمبدأ اللاهوتي الذي يفسر لهم كل شيء. ولذلك يسأل أوغسطينوس الدوناتيين:

"ما الذي فعلته الكنيسة ضدك حتى أنك تريد أن تجعلها بلا رأس Decapitate؟ لماذا تريد أن تأخذ رأسها وتفصله وتترك الجسد. باطلةٌ هي خدمتك، وعبادتك هي زور إذا عبدت الرأس بدون الجسد، لأن فصل الرأس عن الجسد هي إصابة تصيب وتجرح الاثنين معاً الرأس والجسد" (عظة ١٣٨

مجلد ٣٧ عامود ١٧٩٧).

ويؤكد القديس أوغسطينوس رابطة المحبة بين الجسد والرأس، وهي المحبة التي لا تسمح بفصل الجسد عن الرأس، ويقول عن المسيح:

> "على الرغم من أننا لا نراك بعيوننا، إلَّا أنك أنت أيها المسيح مرتبطٌ برباط المحبة. ولأن المسيح كله هو الرأس والجسد، وَجَبَ علينا أن نسمع صوت الرأس لكي نسمع صوت الجسد. فالمسيح لا يريد أن يتكلم وحده، لأنه ليس كائناً وحده بدوننا، فهو يقول: "ها أنا معكم كل الأيام والى انقضاء الدهر" (متى ٢٨: ٢٠)، وإذا كان معنا، فهو يتكلم فينا ويتكلم معنا ويتكلم عنا ويتكلم خلالنا، كما نحن نتكلم فيه" (مزمور ٥٦: مجلد ٣٦: عامود ٦٦٢).

فالمسيح رأس الكنيسة قد أخذ جسدنا الآدمي وحوّله في كيانه وأقنومه الإلهي وجعله آدم الثاني لكي يحول كيان كل واحد فينا. هذا التحول لا يمكن أن يتم بدون القضاء على الخطية، ولكن الخطية لا تعالج إلَّا بحضور المخلص وبعلاقة أقوى.

وهكذا يقول أوغسطينوس:

> "لم يتقزز المسيح من أن يأخذنا إلى أقنومه، ولم يرفض أن يقف في ذات مقامنا، وأن ينطق ذات كلماتنا، لكي نستطيع نحن أن نتكلم كلماته" (مزمور ٣٠ مجلد ٣٦: ٢٣٠).

وحتى كلمات المسيح على الصليب كانت كلماتنا نحن أي عندما قال "إلهي إلهي لماذا تركتني" أو الكلمات الأخرى "إلهي في النهار أدعوك فتستجيب .." (مز ٢١: ٣). ويقول أوغسطينوس:

"حقاً إنه يقول هذه الكلمات عني، وعنك وعن كل إنسان آخر، لأنه يسمع صوت جسده الكنيسة. ولا يجب أن نقع في هذا الخطأ الذي يتصوره بعض الأخوة بأن الرب عندما قال: "يا أبتاه إن شئت أن تعبر عني هذه الكأس" (متى ٢٦: ٣٩)، كان خائفاً من الموت، بينما بولس الرسول كان يشتاق إلى الموت لكي يكون مع المسيح. ما أغرب هذا التناقض: يشتاق بولس للموت، بينما يخاف المسيح من الموت؟ ولكن ما معنى كلمات الرب سوى أنه حَمَلَ ضعفاتنا في كيانه، نطق بهذه الكلمات من أجل الذين في جسده والذين لا زالوا يخافون الموت؟ لقد كانت هذه الكلمات هي صوت هؤلاء الخائفين، أي صوت أعضاء جسده، وليس صوت الرأس رغم أنها صدرت عن الرأس .." (شرح مزمور ٢١، وهو ٢٢ حسب التقسيم الشائع عندنا، مجلد ٣٦: عامود ١٧٢).

"هذه الوحدة يعبِّر عنها صوتٌ واحدٌ، وهي مهما كانت كلمات هذا الصوت، إلَّا أنها تصدر عن الرأس رغم أنها صادرة عن الجسد. وعندما قال: "نفسي حزينة حتى الموت" (متى ٢٦: ٣٨)، فقد أعلن الرب نفسه فيك، لأنك أنت فيه" (العظات المتفرقة للأب Morin ص ١٠٧).

وعندما قال الرب إلهي إلهي لماذا تركتني؟ يقول أوغسطينوس:

"الكلمات التي قالها على الصليب لم تكن كلماته هو بل كلماتك أنت" (مز ٤٣: مجلد ٣٦: عامود ٤٨٣).

الوسيط ليس غريباً أو بعيداً، بل هو رأس الجسد:

لم تكن هرطقة الدوناتيين غريبة على ساحة الهرطقات، كانت هرطقة أبوليناريوس *Apollinarius* قبلها قد أخذت مفتاح الخطية، باعتباره المفتاح الوحيد، وحاولت أن تنكر وجود عقل ونفس إنسانية في الكلمة المتجسد ابن الله ربنا يسوع

المسيح. وكتب الآباء: أثناسيوس الرسولي، غريغوريوس الثيؤلوغوس، وغريغوريوس النيسي ضد بدعة أبوليناريوس، وجاء الرد الأرثوذكسي بحقيقة هامة، وهي أن الرب يسوع ربٌّ واحدٌ، لاهوت كامل وإنسان كامل، له إرادة وعقل ونفس إنسانية، وإلَّا تعذَّر الخلاص.

كيف شرح الآباء هذه الحقيقة الأرثوذكسية؟

نترك الرد للقديس غريغوريوس النزينزي:

"لا نرضى بأن يتهمنا أحد بأننا نرى مسيحين أو ربَّين في المخلص الواحد، وإنما الله الابن الذي هو بالطبيعة إله وربُّ الكون، وملك الخليقة، وخالق كل ما هو كائن، ومجدِّد Restorer ما سقط[١]، ولم يرفض طبيعتنا ولم يحرمها من الشركة فيه، ولكن بتعطفٍ فائقٍ قَبِل أن يأخذها لكي يردها إلى الحياة. ولكن بما أنه هو الحياة، جاء في نهاية الدهور، عندما وصل شَرُّنَا إلى القمة، ولكي يشفي طبيعتنا ويطهرها من كل الأمراض اتحد (حرفياً "اختلط"، وهو تعبير يعني الشركة في الطبيعة وليس مجرد الاتصال ولكنه أُهمل بعد ذلك بسبب البدعة الاوطاخية) بالطبيعة الدنيئة، أي طبيعتنا الإنسانية، وأخذ الناسوت واتحد به وصار إنساناً. ويقول الرب معلماً تلاميذه: "أنت فيَّ وأنا فيكم" (يوحنا ١٤: ٢٠). هذه الوحدة تجعله إنساناً رغم أنه الإله العلي، لأن هذه الوحدة هي التي ترفع[٢] الإنسان الوضيع إلى فوق، لأن الإله العلي لا يحتاج إلى أن يرتفع إلى فوق، وإنما الإنسان، لأن الكلمة هو المسيح والرب، وما أخذه الكلمة يصبح فيه المسيح والرب" (ضد أبوليناريوس فقرة ٥٣ مجموعة الآباء اليونانيين مجلد ٥٤: عامود ١٢٥٢).

---

(١) راجع عبارة القداس الغريغوري "وعندما سقط أردت أن تجدده وترده إلى رتبته الأولى".

(٢) راجع عبارة ذات القداس "رفعت باكورتي إلى السماء".

الفصل الرابع

التعليم الرسولي بوحدتنا واتحادنا في المسيح كما يشرحه القديس أثناسيوس الرسولي

خلق الإنسان بصلاح الله

يقول القديس أثناسيوس في كتابه الرد على الوثنيين إن بداية تزييف الإنسان لكل شيء بما فيها كيانه الإنساني هو اختراع ما لا وجود له في الواقع، أي الشر:

> "لم يكن الشر موجوداً منذ البدء (عندما خلق الله كل الأشياء)، .. ولكن البشر هم الذين بدأوا يتخيلون الشر ويتصورنه على مثالهم own likeness" (الفصل الثامن فقرة ١ ص ٤، ص ٥ من الترجمة الانجليزية المقابلة).

ولكن ما معنى أن يتصور الإنسان الشر على مثاله؟

أولاً: أن يعتقد بأنه موجود وكائن، لأن الإنسان موجود وكائن.

ثانياً: أن يعطى له الإنسان كل صفاته الإنسانية، أو بعضها، ولذلك يقول

أثناسيوس:

"واخترع البشر الأصنام وتوهموا إن ما لا وجود له موجود بالفعل"
(ف ٢: ص ٦، ص ٧).

هكذا زيَّف الإنسان كيانه، وأسقط صورته ومثاله على المادة، وخلق منها آلهةً لا وجود لها بالمرة. وهنا يرى القديس أثناسيوس إن ما حدث إنما هو صراع روحي وفكري بين حقيقتين.

الأولى: خلق الله للإنسان على صورته ومثاله.

الثانية: تزييف الإنسان لكيانه بالانتقال من الحالة التي خُلق عليها كصورة لله، إلى حالة أخرى، وهي أن يكون الإنسان صورةً لنفسه بدون الله.

والتعارض بين ما خلقه الله، وما كوّنه الإنسان عن نفسه هو ما يسمى بعد ذلك بسقوط الإنسانية، وانحدر الأب الأول آدم من صورة الله إلى صورة ذاته. ومع أن الآباء لم يستخدموا أسطورة "نرجس" الشاب الجميل الذي عشق صورته التي رآها منعكسةً على صفحة ماء، ومات من الجوع والعطش لأنه رفض أن يترك صورته، إلَّا أننا نلمح في وضوح شديد في الكتابات النسكية التعارض بين محبة الله، ومحبة النفس، ومحبة الغريب.

ولم يكن عبثاً أن لخَّص ربنا يسوع الناموس في عبارته المشهورة: «تُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ قُدْرَتِكَ وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ وَقَرِيبَكَ مِثْلَ نَفْسِكَ» (لو ١٠: ٢٧). لأن محبة القريب التي تتساوى بمحبة الإنسان لنفسه، هي أول محاولة حقيقية يتجاوز فيها الإنسان عشقه لنفسه[١].

(١) أحياناً نرى كيف نحب أنفسنا عندما نتأمل كيف نعامل الآخرين. وظهور القسوة في تصرفاتنا يشرح لنا ضآلة محبتنا لأنفسنا.

ويشرح القديس أثناسيوس عطية الصورة الإلهية للإنسان مؤكِّداً ثلاث حقائق هامة لا يجب أن تمر دون أن نتوقف عندها؛ لأنها ثلاثية التعليم الرسولي الأصيل غير المرتبك بانحرافات الفكر اللاهوتي في العصر الوسيط.

ثلاثية الوجود الإنساني

أولاً: إن الإنسان هو صورة الله.

ثانياً: إن الشريعة أُعطيت لتحفظ الحياة الإنسانية.

ثالثاً: إن المصير النهائي والأبدي للإنسان هو أن يكون مثل خالقه، وأن يصل إلى غاية خلقة على صورة الله، أي يصل إلى الله نفسه.

أولاً: الإنسان خُلِقَ على صورة الله مثاله

يؤكد القديس أثناسيوس أن الصورة والمثال، هي في الحياة العقلية الداخلية التي يحياها الإنسان. وكلمة "عقل" عند الآباء، حددها آباء الإسكندرية أكثر من غيرهم، والعودة إلى تحديد الآباء يحل مشاكل كثيرة ورثناها من فكر الإرساليات، وحركات التبشير التي شوهت الكثير من الأفكار الخاصة بالله والإنسان في الشرق العربي.

١ – العقل هو قدرة روحية وفكرية، وهو أحد مكونات صورة الله في الإنسان. فالإنسان خُلق كما يقول القديس أثناسيوس بفضل صلاح الله:

> "وخلق البشر حسب صورته بواسطته كلمته ربنا يسوع المسيح مخلصنا، وأعطى الإنسان قدرة على أن يتأمل ويدرك ويفهم ما هو كائن بسبب تشبهه بخالقه، وأعطاه إدراك ومعرفة أزليته (الله)، إذا استمر في البقاء كمثالٍ لله ولم يتخلَّ عن معرفته بالله .. بل يحفظ النعمة التي أُعطيت له،

وأعطاه قدرةً خاصةً بواسطة كلمة الآب، لكي يفرح ويتحدث مع الله، عائشاً الحياة المباركة الكاملة أي الحياة الأبدية (أو حياة عدم الموت)" (الرسالة إلى الوثنيين، فصل ٢: ص ٦، ص ٧).

إذن، فالتأمل والإدراك والمعرفة الإنسانية نابعة من اتجاهين أو من مصدرين:

- الصورة الإلهية التي وُهِبَت كنعمة للإنسان.

- حياة الشركة التي تقوم على التأمل والحديث وفهم الله.

ويقول أثناسيوس إن حياة التأمل ورؤية الله كانت دعوة للإنسان أن يرتفع إلى معرفة فوق حواس الجسد أي يسمو متجهاً نحو الله بتأمل الله، حتى يمكن للإنسان "أن يرى الكلمة، ويرى فيه أيضاً آب الكلمة، ويفرح بتأمله ويتجدد بالشوق إليه" (الرسالة إلى الوثنيين، ف ٢: ص ٦، ص ٧).

٢– والخلق بواسطة الكلمة ابن الآب يضع أمام الإنسان عدة حقائق هامة تحتاج لدراسة مطولة؛ لأن معلمنا أثناسيوس يرى أن الرب يسوع خلق الإنسان على صورته لكي يؤسِّس في الإنسان –بالخلق على صورته– الأساس الثابت والأبدي لعلاقة أبدية؛ لأن الإنسان يتأمل خالقه كلمة الله ويرى فيه الآب ويتجدد بالشوق إلى الخالق .. وهكذا نرى أن العلاقة مع المسيح تبدأ بخلق الإنسان، ولا تبدأ إلَّا بهذه الحقيقة البسيطة التي يعلنها إنجيل القديس يوحنا في بساطة كاملة في الإصحاح الأول:

"في البدء كان الكلمة،

كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان،

فيه كانت الحياة. كان هو النور الذي يضيء لكل إنسان آتياً إلى العالم" (يوحنا ١: ١ – ٦ – راجع أيضاً كولوسي ١: ١٥ – ١٧).

وهكذا تصبح عودة الإنسان إلى ذاته، وإلى كيانه المخلوق على صورة الله هي بداية التديُّن السليم. ومن لا يؤمن بذاته وبكيانه، فهو غير قادر على أن يؤمن بآخر، حتى لو كان هذا الآخر هو الله.

٣- وعكس ما ساد في اللاهوت الغربي في العصر الوسيط، يؤكد أثناسيوس أن النعمة سبقت الشريعة؛ لأن أول نعمة أخذها الإنسان هي نعمة الوجود، ثم النعمة الثانية التي أضيفت إلى النعمة الأولى هي نعمة الصورة الإلهية. فيقول:

> "من ضمن المخلوقات التي تعطَّف عليها بشكل خاص، الجنس البشري، لأنه رأى أنه حسب حدود وجودهم فإنهم غير قادرين على البقاء إلى الأبد، فأعطاهم نعمة أخرى مضافة، لأنه لم يكتف بأن يخلق الجنس البشري مثلما خلق الحيوانات غير العاقلة، بل خلقهم على صورته وأعطاهم نصيباً في قوة كلمته (اللوغوس)، فصاروا كما لو كانوا ظلاً للكلمة، وهو ما يجعلهم مخلوقين عاقلين" (تجسد الكلمة ف ٣: ص ١٤٠، ص ١٤١).

* فالإنسان يتبع الكلمة مثل تبعية الظل للنور.

* وحدود الطبيعة الإنسانية المخلوقة، والتي جاءت من العدم هي التي دَعَت إلى ضرورة الحصول على نصيب في القوة العاقلة والخالقة للكلمة ابن الله، وهو ما يجعل الإنسان عاقلاً إذا استمر يتبع الكلمة.

* فالصورة الإلهية في الإنسان هي عطية مضافة، أو نعمة ثانية، تجعل الإنسان يرتفع إلى مستوى الإدراك والفهم، كما تقول الليتورجية "بصحبة وشركة المسيح" إلى المستوى الإلهي في المعرفة.

ثانياً: الصورة الإلهية كعطية خاصة، أكبر من الشريعة

فإذا كانت معرفتنا بالله بدأت بخلق الإنسان على صورة ابنه ربنا يسوع المسيح.

وإذا كانت هذه المعرفة هي عطية خاصة تضاف إلى كيان الإنسان لكي تجعل الإنسان عاقلاً وظلاً للكلمة .. فما هو دور الشريعة؟

يقول القديس أثناسيوس:

"وبالإضافة إلى ما ذكرناه، فإن الله يعرف أن البشر لهم إرادة حرة يمكن أن تميل إلى الشر أو الخير (حرفياً إلى الجهتين)، فدعَّم الله النعمة التي أعطاها لهم بالوصية، وبالبيئة الخاصة التي خلقوا فيها، لأنه جاء بهم إلى الفردوس وأعطاهم الشريعة، حتى إذا حفظوا النعمة ظلوا صالحين وعاشوا حياة الفرح في الفردوس" (تجسد الكلمة ف ٣: ص ١٤، ص ١٤١).

فالحياة حسب الصورة الإلهية أعظم بكثير من الحياة حسب الشريعة. فالشريعة تحفظ النعمة، ولكنها ليست هي مصدر النعمة، والشريعة تحفظ حرية الإرادة؛ لأن الكلمة الثابتة في تراثنا ليست هي كلمة قانون "*Law*"، بل "الوصية"، وهي لا يمكن أن تترجم إلى "*Commandment*"، بل هي فعلاً الوصية التي تقف كعلامة تُرشد من يريد إلى الطريق المستقيم. فإذا كانت شركتنا مع الله هي غاية خلق الإنسان على صورة الله، تحولت الشريعة إلى وسيلة وإلى بداية أو علامة على الطريق، ولم تعد هي الغاية بالمرة، لأن صورة الله أعظم بكثير من "لا تقتل، لا تسرق .. الخ"، وصارت الشريعة حافظة للنعمة، ولكنها ليست النعمة، لأن النعمة هنا حسب عبارات الكتاب المقدس، وحسب شرح القديس أثناسيوس هي كيان الإنسان نفسه الذي "خُتِمَ" بختم ابن الله، أي نال الصورة الإلهية.

ثالثاً: مكونات الصورة الإلهية

يقول القديس أثناسيوس وهو يشرح سبب تجسد ابن الله:

"لقد كنا نحن سبب تجسده .. لقد خلقنا الله وأراد أن يحيا الإنسان

> في عدم فساد. ولكن عندما احتقر البشر التفكير في الله، وابتعدوا عن معرفتهم بالله، وفكروا واخترعوا لأنفسهم الشر، نالوا حكم الموت του Θανατου Κατακρισιν، الذي سبق تهديدهم به، ولم يبقوا كما كانوا من قبل، أي كما خلقوا، لأنهم فسدوا حسب اختراعهم (للفساد)، أو فسدوا بالفساد الذي اخترعوه لأنفسهم" (تجسد الكلمة ف ٤: ص ١٤٢، ص ١٤٣).

فالإنسانية الحقيقية تبدأ بالفكر، بالعقل، بالإدراك. والفكر هو الذي يميِّز الإنسان عن الكائنات غير العاقلة. وقارئ اليونانية يدرك أن البشر Λογικοι هم الذين لهم شركة مع اللوغوس. أمَّا الكائنات الأخرى فهي αλογοι أي ليس لديها شركة اللوغوس. فما هي مكونات الصورة غير الإدراك والفهم؟ يقول أثناسيوس في النص السابق إن تحول البشر بدأ بالفكر، بما اخترعوه وتصوروه على مثالهم، وهي كلمة ذات دلالة هامة، لأنها تشرح أصل الشر، فالإنسان خُلِقَ من العدم، هذا هو أصل الإنسان، وإذا تصور الإنسان الشر، تصوره حسب قدراته طبيعته. وإذا تأمَّل الإنسان كيانه بدون الله، وجد فيه العدم. وهكذا يشرح أثناسيوس خلق الإنسان:

> "لأنهم إذا كانوا قد دُعُوا إلى الوجود بحضور اللوغوس أو الكلمة ومحبته للبشر، فإنه يتبع ذلك أنهم متى تجردوا من معرفتهم بالله، وتأملوا أو أدركوا ما لا وجود له، أي الشر، لأن ما هو كائن هو خير لأنه مخلوق بالله الكائن، فَقَدَ البشر وجودهم الأبدي" (تجسد الكلمة ف ٤: ص ١٤٤، ص ١٤٥).

فالتجرد من معرفة الله يسوق الإنسان نحو ما لا وجود له، أي ما هو كائن في فكر الإنسان وخياله فقط، ولا وجود طبيعياً أو حقيقياً له؛ لأنه لم يخلق بواسطة الله.

وكينونة الله، وكينونة الخير هي أهم قضايا أنطولوجية المعرفة الإنسانية في الأرثوذكسية، فما هو كائن له وجودٌ خلقه الله، ورسم له حدود وغاية طبيعته، فالوجود

خير لأنه ينتمي إلى الحدود Λογοι التي أعطاها الله لكل مخلوق. هذه الحدود هي الوجود والصفات والعلاقات المعقدة مع الخليقة كلها التي يدبِّرها اللوغوس أو الابن حسب مسرته.

وعندما نسمع عن هجرة الطيور من شتاء أوربا إلى شاطئ إفريقيا الدافئ، فإن اللوغوس هو الذي يقود هذه الطيور، وهو الذي يعطي العمر والبقاء وسائر الصفات الأخرى للخليقة. وقد أفاض القديس أثناسيوس في شرح كيف تنسجم الطبائع المتنافرة في الخليقة (الرسالة إلى الوثنيين فصل ٣٦)، مثل الماء والنار .. ليقول:

"إن هذه العناصر لا يمكن أن توجد معاً بسبب تنافر طبائعها، ولذلك فهي ليست موجودة بذاتها" (فصل ٣٦: ص ٩٨ – ٩٩).

ويعود ليؤكد في فصل ٣٧ من الرسالة إلى الوثنيين على أن الرب هو الذي يجمع هذه العناصر معاً. ويقول أثناسيوس:

"إن الله هو قائد الخليقة" (الرسالة إلى الوثنيين ٣٨ ص ١٠٤ – ص ١٠٥).

فالوجود، أو الكينونة هو إذن، أحد مكونات الصورة، إذ يقول أثناسيوس:

"الإنسان بالطبيعة فانٍ؛ لأنه مخلوقٌ من العدم، ولكنه بسبب وجوده الذي يشبه من هو كائن (الله)، But because of his likeness of him who exists كان يمكنه أن يتفادى فساده الطبيعي، وأن يبقى في عدم فساد إذا أبقى الله في معرفته من خلال تأمل الله؛ لأن سفر الحكمة يقول: "حفظ الشريعة هي ضمان عدم الفساد" (حكمة ١: ١٨)، وإذا عاش في عدم الفساد، كان يمكنه أن يحيا مثل الله كما تقول الأسفار الإلهية في موضع معين "أنا قلت إنكم آلهة" (مزمور ٨١: ٦ – ٧)" (تجسد الكلمة – ف: ٤).

وهكذا تظهر لنا جوانب أنطولوجية المعرفة، فالإنسان يعرف، ليس لأنه قادر على التفكير، وإنما يعرف لأن كيانه كله يحيا مثل الله، وهذه الحياة هي التي تشكِّل وتكوِّن المعرفة الإنسانية، أي المعرفة النابعة من كيانه المخلوق حسب الله أي حسب صورته، هذه ليست مثل المعرفة الآتية من العدم، أي صورة الإنسان الحقيقية أو حسب كلمات القديس أثناسيوس "الطبيعية"، لأن الإنسان بدون الله يصبح ثمرة العدم. ويؤكد القديس أثناسيوس هذا مرةً ثانيةً بقوله:

> "إن الله لم يكتف أن يخلقنا من العدم، بل وهبنا بنعمة الكلمة أن نحيا حياةً إلهيةً" (تجسد الكلمة ف ٥: ص ١٤٤ – ص ١٤٥).

والحياة التي تكوِّن المعرفة، هي الإنسان الذي يحيا القداسة، أمَّا المعرفة التي تكوِّن الحياة، فهي حالات نراها في أنفسنا وفي الآخرين، عندما تختلط المعرفة الكاذبة النابعة من تعدي الفكر حدود الطبيعة التي خُلقنا عليها إلى تصورات وأوهام الشر التي لا وجود لها في حياة الشركة مع الله[1]. ولذلك يقول الرسول بولس: "تغيروا عن شكلكم (الحياة كما نريدها)، بتجديد أذهانكم (معرفة الحياة التي يريدها الله).

---

(1) راجع كتاب الخلقة الجديدة بجزئيه للأب متى المسكين، حيث يؤكد على وجود حياة المسيح فينا ويشرح عجز العقل أو الفكر عن استيعاب هذه الحقيقة بسبب الشر.

الفصل الخامس

الوجود الجديد الذي أعطاه المسيح للإنسانية (الأساس الأبدي للخلاص)

خُلق آدم الأول من العدم، لكن آدم الثاني لم يُخلق من العدم، بل خُلق بالروح القدس ومن القديسة مريم. وعندما نقول إنه خُلق فالمقصود هو الناسوت؛ لأن اللاهوت لا يُخلَق بل يخلِق. وقد دافع القديس أثناسيوس عن معنى نص سفر الأمثال (٨: ٢٢)، الرب خلقني أول طريقه[١] مؤكداً أن الخلق هنا هو الخلق الجديد، أو الخليقة الثانية، وإن الخليقة الأولى كانت بالكلمة ابن الله، والخليقة الثانية هي من الكلمة وفيه هو، أي في أقنومه، ومع أن الفارق اللغوي لا يُعلن قوة وجمال الخليقة الثانية، إلَّا أن هذا المعنى سيظهر جلياً عبر الصفحات التالية.

يقول القديس أثناسيوس:

> "الابن ضابط الكل مثل الآب؛ لأنه هو نفسه قد قال: "كل ما للآب فهو لي". ومن صفات الابن أن يكون له ما للآب، وهو هكذا، حتى

---

(١) من المعروف أن الفعل العبراني "قنى" يعني "خلق" و "فدى" كما يعني أيضاً "اقتنى". ولكن حيث أن الترجمة السبعينية أخذته بمعنى خلق، لم يشأ القديس أثناسيوس أن يدخل في مماحكات لغوية، بل قبل المعنى وشرحه بكفاية في المقالة الثانية ضد الأريوسيين.

يُرى الآب فيه (أي لكي يعلن الآب)، وبه تخلق كل الكائنات، وخلاص الكل به يتم، وفيه يكمل (أو يتحقق)". (ضد الأريوسيين ٢: ٢٤ – ص ٤٣).

"**في المسيح**" تعني عند أبونا ومعلم الأرثوذكسية:

الأساس الأزلي الذي رتَّبه الله قبل خلق العالم. وهنا بشكل خاص يدعو أثناسيوس الأريوسيين إلى التمييز بين الجانب الأزلي قبل الدهور، والجانب الزماني الذي أُعلن في الزمان بسبب تجسد الكلمة وموته وقيامته.

وهذا الأساس الأزلي هو أقنوم الابن نفسه. وهكذا يشرح القديس أثناسيوس نص سفر الأمثال (٨: ٢٢):

"أمَّا كلمات الكتاب المقدس في سفر الأمثال ٨: ٢٢، مثل "قبل الدهور" وقبل أن يخلق الأرض، وقبل أن تُرسى الجبال، فلا يجب أن تُزعج أحداً منا؛ لأن معنى هذه الكلمات يمكن أن نراه بشكل واضح ومتناسق إذا ربطناه مع فعل "أسَّس" وفعل "خلق"، إذ أن كلا الفعلين يؤكدان لنا تدبير الجسد. فالنعمة التي أعطاها إيانا المخلص قد ظهرت في الزمان كما قال الرسول (تيطس ٢: ١١)، عندما تجسد الرب وسكن بيننا، لكن هذه النعمة كانت قد أُعدت قبل أن يخلقنا، بل قبل خلق العالم. وسبب أزلية النعمة مدهشٌ وصالح؛ لأن الله لم يهتم بنا بعد أن خلقنا، فهذا يجعله يجهل ما سوف يحدث لنا، ولكن إله الجميع خلقنا بكلمته الذاتي، وكان يعرف أمورنا أكثر منا، وكان يعرف ما سيحدث لنا، لأننا وإن كنا قد خُلِقنا صالحين، إلَّا أنه كان يعرف أننا سوف نخالف الوصية ونصبح خطاة، وإننا سوف نُطرد من الفردوس بسبب العصيان. لكن الله محب البشر الصالح أعدَّ لنا قبل خلقنا تدبير خلاصنا بكلمته الذاتي الذي به خُلقنا. ومع أننا خُدعنا بواسطة الحية، وسقطنا في قبضة الموت، لم يشأ أن نكون أمواتاً إلى الأبد، بل أن ننال

بالكلمة الذاتي الفداء والخلاص الذي سبق وأعدَّه لنا لكي نقوم من الموت ونصبح غير مائتين. لذلك قِيل عنه عندما تجسد إنه خُلق من أجلنا وإنه "بدء الطريق" وأيضاً صار "بكر الخليقة" و"بكر إخوة" وقام باكورة الأموات" (ضد الأريوسيين ٢: ٧٥ – ص ١١٤ – ١١٥).

ويؤكد القديس أثناسيوس ذات المعنى بالعودة إلى التعليم الرسولي نفسه. وحسب شهادة الرسول بولس الذي يقول: "اشْتَرِكْ فِي احْتِمَالِ الْمَشَقَّاتِ لأَجْلِ الإِنْجِيلِ بِحَسَبِ قُوَّةِ اللهِ. الَّذِي خَلَّصَنَا وَدَعَانَا دَعْوَةً مُقَدَّسَةً، لاَ بِمُقْتَضَى اعْمَالِنَا، بَلْ بِمُقْتَضَى الْقَصْدِ وَالنِّعْمَةِ الَّتِي اعْطِيَتْ لَنَا فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ قَبْلَ الأَزْمِنَةِ الأَزَلِيَّةِ، وَإِنَّمَا اظْهِرَتِ الآنَ بِظُهُورِ مُخَلِّصِنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي ابْطَلَ الْمَوْتَ وَأَنَارَ الْحَيَاةَ وَالْخُلُودَ" (٢ تيمو ١: ٨ – ١٠). وهذه الكلمات تؤكد الأساس الأزلي للنعمة، أي ابن الله نفسه، ويدعم أثناسيوس هذه الشهادة الغالية، بكلمات الرسول في أفسس "مُبَارَكٌ اللهُ أَبُو رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي بَارَكَنَا بِكُلِّ بَرَكَةٍ رُوحِيَّةٍ فِي السَّمَاوِيَّاتِ فِي الْمَسِيحِ، كَمَا اخْتَارَنَا فِيهِ قَبْلَ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ، لِنَكُونَ قِدِّيسِينَ وَبِلاَ لَوْمٍ قُدَّامَهُ فِي الْمَحَبَّةِ، إِذْ سَبَقَ فَعَيَّنَنَا لِلتَّبَنِّي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ لِنَفْسِهِ" (أف ١: ٣ – ٥)، وهنا يسأل القديس أثناسيوس هذه الأسئلة التي يجب أن نهتم بها:

١– كيف اخترنا قبل أن نُخلق؟

٢– كيف اخترنا دون أن نكون ممثَّلين فيه؟

والسؤال الثاني مثل السؤال الأول هام جداً؛ لأن الاختيار هو عمل الإرادة الأزلية. ولكن ما معنى أن تكون "ممثَّلين" في الابن الكلمة؟ الجواب يقدمه تسليم الآباء على هذا النحو:

إن خطة التدبير التي تجعل المشورة الأبدية غير مرتبطة بالمرة بالزمان، بل الزمان هو الخاضع لإرادة الله ومشورته، وبالتالي لم يكن تمثيل البشر في الابن بكر الخليقة شيئاً

طارئاً، بل هو إرادة وقصد كائن في المشورة الأزلية، وأُعلن في الزمان.

ويسأل القديس أثناسيوس السؤال الثالث:

٣– كيف سبق فعيَّننا للتبني قبل أن يخلق البشر؟ لابد وأن يكون الابن هو ابن الله الأزلي، لأن اختيار البشر لهذه النعمة يجب أن يكون له أساس في الحياة الإلهية نفسها. هذا الأساس هو أقنوم الابن نفسه. ولذلك يشرح أثناسيوس عبارة سفر الأمثال (٨: ٢٢)، على هذا النحو مؤكداً أن الابن هو الأساس الكائن قبل الدهور وأن نكون نحن قبل كل الدهور وقبل خلق السموات والأرض "مُتبنون فيه" ***We were made sons in him*** (ضد الأريوسيين ٢: ٧٦ ص ١٥ – ص ١١٦).

ولذلك يُعيد السؤال مرة ثانية:

كيف حصلنا على النعمة قبل الأزمنة الأزلية بينما لم نكن قد خلقنا بعد، بل خلقنا في الزمان؟ والجواب: هو أن النعمة التي وصلت إلينا كانت مودعة في المسيح.

ويقدم القديس أثناسيوس التعليم الرسولي بكلمات الرب نفسه: "تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي أَبِي رِثُوا الْمَلَكُوتَ الْمُعَدَّ لَكُمْ مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ" (متى ٢٥: ٣٤)، ثم يسأل للمرة الرابعة:

كيف إذن، أو مَن هو الذي أعدَّ الملكوت قبل أن يخلقنا؟

والجواب: الرب الذي هو الأساس الأزلي "لكي نُبنى عليه كحجارة حية متماسكة، وبه نشترك في الحياة والنعمة الممنوحتين لنا منه. "ليس في قدرتنا بسبب خلقتنا –في الزمان– كبشر من تراب أن نحيا إلى الأبد، ولكن رجاء الحياة والخلاص قد أُعدَّ في المسيح قبل كل الدهور" (ضد الأريوسيين ٢: ٧٦).

أزلية الكلمة تعني أزلية التدبير

ما يُعلن في الزمان هو خاضع لمشورة الثالوث الأزلية، وما يجب أن ننتبه إليه لئلا نخسره كله بسبب عدم المعرفة أو قلة التمييز، هو أن أساس الخلاص هو أزلية الابن، وصفته الأقنومية أي بنوته، ولولا أزلية الابن، ما كان لنا نعمة سبقت وجودنا، أي نعمة التبني، ولذلك يقول أثناسيوس:

> "سنبقى أحياء في المسيح؛ لأن حياتنا قد تأسَّست وأُعِدَّت بالمسيح قبل خلق العالم" (ضد الأريوسيين ٢: ٧٦).

> "لم يكن من اللائق إذن أن تؤسَّس حياتنا بأي طريقة أخرى سوى أن تؤسَّس في الرب الذي هو كائن منذ الأزل الذي به خلقت الأكوان، لكي نستطيع نحن أيضاً أن نرث الحياة الأبدية الكائنة فيه" (ضد الأريوسيين ٢: ٧٧ ص ١١٧).

تشبيه يشرح التدبير

يقدِّم القديس أثناسيوس هذا التشبيه الهام لكي يؤكد أساس وأزلية النعمة حسب مشورة الله الأزلية:

> "الله صالح، وهو صالح على الدوام، ويعرف ضعف طبيعتنا التي تحتاج إلى معونته وخلاصه، لذا فقد دبَّر أو خطط مثل مهندس حكيم أراد أن يبني منزلاً، وكجزء من نفس الخطة، خطط أسلوب تجديد المنزل لو أصابه أي دمار بعد بناؤه، ورتَّب كل هذا وخطط قبل بناء المنزل، ويعطي للقائم بالبناء والتجديد، الاستعدادات اللازمة. وهكذا كان تجديد المنزل مُعدَّاً قبل بناء المنزل" (ضد الأريوسيين ٢: ٧٧).

ويطبِّق التشبيه على الخلاص ويقول:

"وبنفس الطريقة كان تجديدنا للخلاص قد تأسَّس في المسيح قبل أن نُخلق نحن، حتى تصبح إعادة خلقتنا فيه من جديد ممكنة، فالإرادة والتدبير قد أُعدَّا منذ الأزل، أمَّا العمل نفسه، فقد تم عندما استدعت الحاجة إليه، فجاء المخلص إلى العالم .." (المرجع السابق).

الأساس الأبدي للخلاص هو الابن الأبدي الذي لا يخضع لما تخضع له المخلوقات

نستطيع أن نقول في بساطة أرثوذكسية إن أعمال الله وإرادته لا تخضع للبشر، لأن الزمان والتاريخ مهما كانت قوته هو كله خاضع لمن قال: "أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر" (متى ٢٨: ١٩)، ولكن هذه الحقيقة الهامة لا تكفي لشرح الخلاص. فالأمر ليس مجرد خضوع لإرادة الآب، بل هي الشركة في حياة الله التي منها تفيض النعمة. فإذا كان أساس الخلاص هو أزلية الكلمة وبنوته للآب، وهو ما يجعل الرسول بولس يقول: "ورثة الله ووارثون مع المسيح" (رو ٨: ١٧)، فإن الخلاص يتخطى كل ما هو مخلوق وكل ما يسمى قوة ورئاسة وحكم وشريعة؛ لأنه أعظم من كل هذه ولا يخضع لها؛ بل الكل يخضع له حسب قول الرسول الذي أعاد فيه دستور الخليقة في المزمور الثاني: "أخضعت كل شيء تحت قدميه" (عب ٢: ٥ – ٨). وأيضاً: "فَإِنَّهُ فِيهِ خُلِقَ الْكُلُّ: مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا عَلَى الأَرْضِ، مَا يُرَى وَمَا لاَ يُرَى، سَوَاءٌ كَانَ عُرُوشاً امْ سِيَادَاتٍ امْ رِيَاسَاتٍ امْ سَلاَطِينَ. الْكُلُّ بِهِ وَلَهُ قَدْ خُلِقَ" (كولوسي ١: ١٦).

النعمة الأبدية

كانت الهرطقة الأريوسية عاجزةً عن التمييز بين الخالق والمخلوق، ولهذا كانت الحاجة إلى هذا التمييز ضرورية جداً. وجاء الآباء حتى قبل الأريوسية ليؤكدوا على

الحقائق الآتية عن نعمة الله التي أُعلنت في المسيح:

أولاً: النعمة هي من الثالوث، من الآب بالابن في الروح القدس. ورغم أن هذه العبارة شائعة في القرن الرابع إلَّا أنها وردت عند كل آباء ما قبل نيقية بشكل مختصر مثل الآب يعمل كل الأشياء بالابن. والابن يقدس كل الكائنات بالروح القدس.

ثانياً: النعمة هي شركة في اللاهوت نفسه لنوال ما لا يمكن أن يناله الإنسان كمخلوق. هذه الشركة في اللاهوت نراها في التعليم الرسولي في شكله البسيط في المقارنة بين الإنسان حسب الطبيعة والإنسان في المسيح.

الإنسان حسب الطبيعة	الإنسان في المسيح
فساد	عدم فساد
هوان	مجد
ضعف	قوة
حياً، أو حيوانياً	روحانياً

وقد وضع الآباء كلمة واحدة لكل أوصاف: عدم الفساد – المجد – القوة – الروحاني، وهي "تألِّيهُ الإنسان". لأن عدم الفساد – المجد – القوة – الروحاني هي أوصاف المسيح الحي القائم من بين الأموات كما نراها في (١ كو ١٥: ٤٢ – ٤٩)، فالمسيح الحي سوف "يغيِّر شكل جسد تواضعنا (الترابي)، ليكون على صورة جسد مجده بحسب استطاعته أن يخُضع كل شيء لنفسه" (فيلبي ٣: ٢١).

الفصل السادس

بداية الجنس البشري الجديد

بميلاد آدم الثاني من العذراء

لماذا وُلِدَ من عذراء؟

لكل معجزة معنى ودلالة. فالمعجزات لا تعلِن فقط قوة الله بشكل مجرد لا علاقة له بالحياة أو التاريخ، بل تعطي معنى، وتغيِّر واقع الإنسان، بل والأهم أنها تُعلِن طبيعة الحياة الجديدة التي تختلف تماماً عن طبيعة الحياة الترابية التي نحياها هنا.

وميلاد الرب من العذراء القديسة مريم والدة الإله سبقه ميلاد اسحق "ابن الموعد" بشكل فائق معجزي، ثم افتتح الرب نفسه العهد الجديد بميلاد السابق والصابغ يوحنا المعمدان الذي يشبه ميلاد اسحق بشكل مدهش. وختم الرب ميلاد كل هؤلاء بميلاده هو نفسه بشكل أعظم؛ لأنه الوحيد من الذين وُلِدوا ميلاداً جسدانياً حقيقياً مثل ميلاد كل البشر، بدون زواج، وبدون وجود أب جسداني، ولم يكن ليوسف "خطيب" القديسة مريم أي دور بالمرة.

إسماعيل وهاجر – اسحق وسارة

يقول الرسول بولس: "فَإِنْ كُنْتُمْ لِلْمَسِيحِ فَأَنْتُمْ إِذاً نَسْلُ إِبْرَاهِيمَ، وَحَسَبَ الْمَوْعِدِ وَرَثَةٌ" (غلا ٣: ٢٩)، وقدَّم الرسول بعد ذلك في الإصحاح الرابع مثالاً للأمم الذين لم يولدوا حسب الجسد من إبراهيم في شكلٍ، قَلَبَ فيه الرسول كل ما نعرفه عن التاريخ اليهودي لكي يؤكد:

- الحياة الجديدة في المسيح،

- وولادتنا الجديدة السمائية.

ويقدِّم الرسول برهانه ضد المتهودين على هذا النحو (غلا ٤: ٢١ – ٣١).

١– أنتم الذين تريدون أن تكونوا تحت الناموس الموسوي، ألستم تسمعون الناموس؟ (التوراة، وبشكل خاص سفر التكوين).

٢– كان لإبراهيم ابنان واحد من الجارية والآخر من الحرة،

٣– لكن الذي من الجارية هاجر، وُلِدَ حسب الجسد، أي بزرع بشري مثل سائر كل البشر.

٤– أمَّا الذي من الحرة سارة، فبالموعد أي بقوة الله. والموعد هو أحد الأسماء التي تضاف للروح القدس؛ لأنه روح الموعد حسب كلمات الرسول بطرس في (أعمال ٢: ٣٩).

التطبيق على التاريخ نفسه

١– هاجر هي رمز لليهودية، فهي رمز لجبل سيناء حيث أخذ موسى الناموس. ويقول الرسول إن هذا هو العهد القديم الذي يلد البشر للعبودية "جبل سيناء الوالد للعبودية" (غلا ٤: ١٤). ويقول في جرأة واضحة إن جبل سيناء هو أورشليم في

فلسطين، وكل اليهود مستعبدين (غلا ٤: ٢٥).

٢– أمَّا سارة فهي عاقر ولم تلد بالمرة. ومَن هي سارة؟ هي السماء، هي أورشليم العليا، لأنها تختلف عن أورشليم الأرضية، وهي حسب كلمات الرسول هي أُمنا جميعاً، وهي حرة (غلا ٤: ٢٦).

وخلاصة المثال الذي يقدِّمه الرسول هي:

١– نحن أيها الأخوة، فنظير تشبه اسحق أولاد الموعد. مولودين من أورشليم السمائية أي السماء التي لم يولد منها أحد من قبل، لكن الآن أولاد العاقر (السماء)، أكثر من التي لها زوج.

٢– ويؤكد الرسول هذه الحقيقة بقوله:

* الذي وُلِد حسب الجسد (اليهود)،

* يضطهدون الذي وُلِد حسب الروح (الأمم)، هكذا الآن أيضاً (غلاطية ٤: ٢٩).

والخاتمة: أُطرد الجارية وابنها؛ لأنه لا يرث ابن الجارية مع ابن الحرة. إذاً أيها الأخوة لسنا أولاد الجارية مثل اليهود، بل أولاد السماء؛ لأننا وُلِدنا حسب الروح (غلا ٤: ٣١).

كيف حدث هذا الانقلاب؟

في عظة من عظات القديس غريغوريوس النزينزي على ميلاد الرب يقول:

"لقد انحلت قوانين الطبيعة بميلاد الرب من العذراء، وانحلت قوانين الطبيعة الفائقة العلوية، أي السماء لكي نُولد نحن من الروح القدس مثل ذاك

الذي وُلِد من الروح القدس والقديسة مريم".

ميلادنا ليس من العذراء مريم، وإنما ميلادنا من الروح القدس والماء في سر المعمودية الذي فيه انحلت قوانين الطبيعة، وتحولت الطبيعة الترابية إلى خادم لسر الحياة الجديدة في المسيح. تأمل كيف تتقدَّس مياه المعمودية، وبعد أن ننال عطية التبني، يصلي الكاهن على المياه لكي تعود المياه "إلى طبعها الأول" قبل تسريح مياه الأردن[١] أي مياه جرن المعمودية. وانحلال القوانين الطبيعية لا يخضع إلَّا للمثال الكامل، أي "ملء المسيح الذي يجمع كل شيء في السماء وعلى الأرض وجاء لكي يرد الجنس البشري إلى السماء" .. أو حسب عبارة الابصلمودية "ويجعل آدم مواطناً سمائياً".

تحولٌ إلى أصلٍ جديد

يقول القديس أثناسيوس:

"وبينما وُلِدَ الجسد من مريم والدة الإله، فإن الكلمة نفسه يقال إنه قد وُلِد، رغم أنه هو الذي يعطي بدايةً ووجوداً للمخلوقات، وإنما وُلِد لكي ينقل بداية وجودنا إلى كيانه، حتى لا نرجع بعد ذلك إلى تراب، لأننا أصلاً من تراب، ولكن بشركتنا في الكلمة (حرفياً بصِلتنا بالكلمة)، الذي من السماء، فإننا ندخل (حرفياً نُحمل) إلى السماء بواسطته؛ لأننا لم نعُد نموت بحسب أصلنا الأول في آدم، بل بسبب أن أصلنا (أو بدايتنا)، وكل ضعفات الجسد قد انتقلت إلى الكلمة. فنحن نقوم من الأرض؛ إذ أن لعنة الخطية قد أُبطلت بسبب ذاك الذي هو كائن فينا، والذي قد صار لعنةً لأجلنا. وكما أننا نحن جميعاً من الأرض وفي آدم نموت، هكذا نحن إذ نُولد من فوق من الماء والروح، فإننا في المسيح نحيا جميعاً. فلا يعود الجسد فيما بعد تراباً، بل

---

(١) الأردن هو الاسم القديم جداً لجرن المعمودية – راجع المعمودية في القرون الأربعة الأولى – د. جورج حبيب بباوي، القاهرة ٢٠١٢، ص ١٥٥ وما بعدها. والكتاب منشور على موقع www.coptology.com.

يصير (حرفياً يصبح مثل اللوغوس[١] أي ينتقل إلى ذات الطبيعة العاقلة الإلهية)، إلهياً مثل الكلمة، وذلك بسبب كلمة الله الذي لأجلنا صار جسداً. (ضد الأريوسيين ٣: ٣٣ راجع الترجمة العربية ص ٦٤ –٦٥).

وفي رسالته إلى أدلفيوس يقول القديس أثناسيوس:

"تأنَّس لكي يؤلِّهنا فيه، ووُلد من امرأة لكي ينقل إلى كيانه جنسنا الخاطئ لكي نصبح فيه شعباً مقدساً وشركاء الطبيعة الإلهية حسبما كتب القديس بطرس" (الرسالة إلى أدلفيوس: ٤ الترجمة الانجليزية ص ٥٧٦).

الأصل السمائي الجديد في المسيح

لا تحتاج العبارات السابقة التي تنقل إلينا تعليم الآباء الرسل إلى شرحٍ وإيضاح، فهي كافية. ولم يكن عبثاً أن أعطت الكنيسة الجامعة في مصر وفي المجامع المسكونية لقب "الرسولي" للقديس أثناسيوس.

لقد جاء المسيح لكي يجددنا .. وهذا هو المقصود من الفعل "يؤلِّه"، أي نصبح سمائيين؛ لأن الخليقة لها أصل إلهي، وهو كلمة الله الخالقة: "قال الله ليكن نور"، وعطية فائقة، وهي عطية الصورة لنكون مثل الله .. وهكذا يكتب معلمنا العظيم شارحاً سبب وجود حياة وكلمة وفهم في الإنسان:

"سُرَّ الله أن ينحدر حكمته إلى مستوى الخليقة حتى يطبع صورته بشكل معين[٢] على الجميع معاً، وعلى كل واحد منا على حدة، حتى تنال المخلوقات صفة الحكمة، وهي صفات الله التي تليق به. وكما أن كلمتنا

---

(١) اقترح سيادة المطران جورج خضر نقل كلمة لوغوس Logos إلى العربية وخلق أفعال عربية من الأصل اليوناني مثل يتلغوس أي يصير كلمة، ولوغاسياً أي ناطقاً عاقلاً مثل اللوغوس.

(٢) راجع صلاة القداس الكيرلسي "لكي نصير شركاء في الشكل وشركاء خلافة مسيحك"، والشكل هنا هو صورة المسيح الممجد.

(البشرية)، هي صورة الكلمة الذي هو ابن الله، هكذا أيضاً الحكمة التي فينا هي صورة الابن الذي هو الحكمة التي بها ينبغي أن ننال المعرفة والفهم ونصير مؤهَّلين لنوال الحكمة الخالق. بواسطة الحكمة نستطيع أن نعرف مصدرها، أي الآب نفسه الذي هو أباها، لأنه مكتوب "مَن له الابن له الآب أيضاً" (١ يوحنا ٢: ٢٣)، .. والتعليم الذي ينطق به الحكمة في داخلنا هو التعليم الذي يقوله الرب نفسه؛ لأن هذا التعليم هو منه هو". (ضد الأريوسيين ٢: ٧٨ راجع الترجمة العربية ص ١١٨، ١١٩).

الفصل السابع

وجودنا في المسيح على الصليب

حسب شرح القديس أثناسيوس

"مع المسيح صُلبنا" وفيه نحيا، وبه.

نعم به نموت ونقوم في المعمودية والميرون والإفخارستيا.

ولم تكن القصة القبطية الغارقة في القدم والتي تقول إن الميرون هو أصلاً العطور التي وُضِعَت على جسد الرب، مجرد قصة تدافع عن أصل رسولي لسر استخدام العطور في تجهيز زيت الميرون، بل لكي تؤكد أننا نقترب من الرب، ليس روحياً فقط، بل أيضاً حسِّياً.. وهكذا ندخل سر التجسد مع الأصل الجديد، وفيه ننال الحياة الجديدة بالصليب والقيامة.

المسيح حياة الكل

تقول كنيسة القديس أثناسيوس في أوشية الإنجيل للمسيح: "أنت هو حياتنا كلنا" ويقول القديس أثناسيوس: "ربنا ومخلصنا يسوع المسيح حياة الكل" (تجسد الكلمة ٢٤: ٣ – ص ٧٩)، فالحياة ليست فكرة مجردة، بل الحياة هو الكلمة الذي هو "فوق

الكل" والذي هو خالق كل الأشياء، هكذا يفهم أثناسيوس أن عمل الكلمة هو رد الحياة للإنسان وهو يؤكد هذا:

> "لم يكن ممكناً أن يحوِّل الفاسد إلى عدم فساد إلَّا المخلِّص نفسه، الذي خلق من البداية كل شيء من العدم، ولم يكن ممكناً أن يُعيد للبشر صورة الله ومثاله إلَّا صورة الآب، ولم يكن ممكناً أن يُلبس المائت عدم الموت إلَّا ربنا يسوع المسيح الذي هو الحياة" (تجسد الكلمة٢٠: ١ ص ٦٨).

وهكذا إن شئنا المقارنة مع فكر العصر الوسيط نجد أن أثناسيوس يضع صفات الفادي:

١– الخالق الذي خلق كل شيء.
٢– الحياة الذي يستطيع أن يُلبس المائت عدم الموت، بينما يتمسك العصر الوسيط منذ زمن أنسلم بشروط أخرى مثل تلك التي ذاعت عندنا هي:

١– خطية الإنسان غير المحدودة.
٢– عقوبة الإنسان غير المحدودة.
٣– ضرورة تقديم فدية غير محدودة.

وأخيراً: لابد أن يكون الفادي غير محدود.

وخطورة هذا التعليم هي أن الفادي، والفدية، والخطية، والعقوبة تشترك كلها في صفة "عدم المحدود"، وبالتالي فهي تتساوى معاً، وهو ما يجعل الفداء عملية تجارية لا تُعلن نعمة الله، بينما رأينا في الصفحات السابقة أن الخالق الكلمة ردَّ الحياة للإنسان وأعطاه نعمة الحياة. وإذا قال أثناسيوس إن الفداء هو ردُّ الفاسد إلى عدم الفساد، وردُّ المائت إلى عدم موت، فهو يقارن مثل الرسول بولس بين آدم والمسيح. وعندما يشرح تفصيل الفداء، يؤكد عدم فساد جسد الكلمة، فيقول:

"وإن كان قد مات لفداء الجميع، لكنه لم يرَ فساداً؛ لأن جسده قام ثانيةً سليماً جداً، إذ لم يكن سوى جسد ذاك الذي هو الحياة ذاتها" (تجسد الكلمة ٢١: ٧ ص ٧٣).

وهكذا أخذ الكلمةُ الموتَ، أي موت البشر، وليس موته هو؛ لأنه لا يموت، وقابَلَ الموت بحياته، فهو "الحياة ذاتها"، وبالتالي عندما تقابلت حياة الكلمة بالموت "انتظر الموت ليبيده" (تجسد الكلمة ٢٢: ٢ ص ٧٤)، فهو "الكلمة الحياة" (تجسد الكلمة ٢٢: ١ ص ٧٤)، هو الذي مات أو "ذاق الموت بالجسد" حسب تعبير صلاة الساعة التاسعة. ولنفس السبب يقول أثناسيوس:

"إن المخلِّص لم يأتِ لكي يتمم موته هو، بل موت البشر، لذلك لم يضع جسده بموتٍ أتى به من نفسه؛ لأنه هو الحياة، ولم يكن قابلاً للموت، بل قَبِلَ الموت الذي أتاه من البشر، لكي يبيده نهائياً عندما يلتقي به في جسده" (تجسد الكلمة ٢٢: ٣ ص ٧٤ – ٧٥).

"والحياة في ذاتها"، ليست فقط اللاهوت دون الناسوت، بل الحياة الواحدة للكلمة المتجسد، وهو ما يؤكده أثناسيوس بقوله:

"لم يُصِب الموتُ الجسدَ بأي ضعفٍ طبيعي بسبب الكلمة الذي حلَّ فيه، بل أُبيد الموت في الجسد بقوة المخلص" (تجسد الكلمة ٢٦: ٦ ص ٨٥).

واتحاد اللاهوت بالناسوت يجعل أثناسيوس قادراً على أن يقول عن جسد الكلمة القابل للموت:

"إنه مات فعلاً، ولكن كان مستحيلاً أن يبقى مائتاً إذ صار هيكلاً للحياة، لهذا، فإذ قد مات كجسدٍ مائتٍ، عاد إلى الحياة بفضل الحياة التي

فيه" (تجسد الكلمة ٣١: ٤ ص ٩٨).

وعودة الجسد، أو الناسوت للحياة بفضل حياة الكلمة، أو الحياة ذاتها، هو أوضح جانب للتعليم الشرقي الأرثوذكسي عن الخلاص، فقد مات الناسوت القابل للموت، وبموت الناسوت، فَقَد الموتُ سلطانه؛ لأن الموت كان الحكم الإلهي الذي تم في جسد الرب، ولكن هنا رفع المسيحُ الحكمَ، وهذه هي الأفعال التي تتناسب مع التعليم الشرقي، وكلها وردت في كتاب تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس:

* سلطانه قد أُكمل، أو تم (٨: ٤ ص ٣٨)
* رفع حكم الموت فوراً (٩: ١ ص ٣٩)
* أبطل الموت بتقديم جسده (١٠: ١ ص ٤١)
* وضع حداً لحكم الموت الذي كان قائماً ضدنا (١٠: ٥ ص ٤٣)
* أباد الموت في جسده نهائياً (١٣: ٩ ص ٢٥١)
* القضاء على الموت والفساد كليةً بفضل اتحاد الكلمة بالجسد (٢١: ٥ ص ٧٠)
* الحكم قد بطُل (٢٢: ١: ٧١)
* انتظر الموت ليبيده (٢٢: ٢ ص ٧٤)
* شوكته في المستقبل قد أُبطلت (يوم الدينونة)، (٢٣: ٤ ص ٧٧)
* يباد الموت بقوة المخلص (٢٦: ٦ ص ٨٥)
* كذلك الموت قد قهره المخلص، وشهَّر به على الصليب وأوثق يديه ورجليه (٢٧: ٤: ص ٨٧)
* أحرز الانتصار والغلبة على الموت، وجعله يفقد كل قوته (٢٩: ١ ص ٩٠)[1].

هذه الأفعال تؤكد سيادة الكلمة وقوته وقدرة الحياة ذاتها، أي حياة الكلمة على أن يحول الفساد إلى عدم فساد، والموت إلى حياة.

---

(١) راجع أيضاً صلاة قسمة القديس كيرلس السكندري: "يا مسيح الله الذي بموتك قتلت الموت الذي قتل الجميع".

الفصل الثامن

آدم الجديد، أو آدم الثاني بحسب التسليم الكنسي كما شرحه القديس أثناسيوس الرسولي

يقارن القديس أثناسيوس، مثل الرسول بولس بين آدم الأول وآدم الثاني. ومع أن المعلِّم السكندري لم يقدِّم لنا إلَّا القليل، وفي إطار التعليم الرسولي للرسول بولس، إلَّا أننا، إذا كنا نريد الحصول على تفاصيل أكثر، علينا أن ندرس المقالات الأربعة في الرد على الأريوسيين، وبالذات المقالة الثانية والثالثة.

أولاً: آدم الأول، وآدم الثاني في كتاب تجسد الكلمة

يقدم القديس أثناسيوس هذه المقارنة في الفصول ٢٠ و٢١ بشكل ظاهر، ولكنه لا ينسى بالمرة الفارق الدقيق بين آدم الأول وآدم الثاني. وسوف يرى القارئ أن أهم ما يميز كلمات وفكر القديس أثناسيوس هو كلمات الرسول بولس نفسه.

آدم الأول	المسيح آدم الثاني
مائت	عديم الموت
فاسد	أُبيد الفساد بنعمة القيامة

ويعيد القديس أثناسيوس الفقرة الخاصة بالقيامة من (١كو ١٥: ٥٣ – ٥٥)، في الفصل ٢١: ٢ ص ٧١ – ٧٢)، مؤكِّداً ذات التعليم عن تحول حياة الإنسان ومصيره من الفساد إلى عدم الفساد، ومن الموت إلى القيامة.

لكن الجديد، والذي لم يذكره الرسول بولس، بل أضافه القديس أثناسيوس، هو التحول في ناسوت المسيح، حيث يشرح القديس أثناسيوس التعليم الرسولي مؤكِّداً أن قيامة المسيح هي علامة الظفر والغلبة على الموت، وشارحاً معنى كلمات الرسول بولس "يقوم في مجد" (١كو ١٥: ٥٥)، بأن هذا المجد هو:

– عدم الفساد.

– عدم إمكانية التألم الذين حصل عليهما جسده (٢٦: ١ ص ٨٣)

وهكذا يعطي أثناسيوس البعد الأخروي المجيد لقيامة الرب مؤكداً أن الرب مات فعلاً، ولكن بفضل اتحاد الكلمة بالجسد تحول الجسد إلى حياة عدم التألم وعدم الفساد .. وهما من صفات اللاهوت.

وهكذا، إذ لم يستخدم أثناسيوس العبارة المألوفة عن "تألُّه جسد الكلمة" في كتاب تجسد الكلمة، استخدم المرادف لفكرة التألُّه، وهو "عدم الفساد وعدم الألم". وفي دفاعه عن خلود الإنسان أو عدم الموت، يؤكد أثناسيوس أن الخالق – الفادي والمخلص كان يستطيع أن يعيد الإنسان إلى ما كان عليه، أي عدم الموت بواسطة الكلمة الخالقة التي خَلَقَ بها كل الأشياء من العدم، وهو ما يصفه بأنه "نطقٌ ملكيٌّ كريم" (٤٤: ١ ص

١٣٣)، ولكن أثناسيوس يقدِّم هنا لاهوت الإسكندرية، والتسليم الرسولي، ويرد على الاعتراض الذي يبدو من سياق الكلام كأحد الاعتراضات الفلسفية، ويقول: "منذ البدء لم يكن للكائنات وجود على الإطلاق، وكان النطق الملكي هو المطلوب لخلقة كل شيء" (٤٤: ٢ ص ١٣٣)، لكن بعد خلق الإنسان وسقوطه "أصبح الأمر يحتاج إلى علاج ما هو كائن ووصل إلى حالة السقوط" (٤٤: ٢ ص ١٣٣)، وهنا في هذه الفقرة بالذات يستخدم أثناسيوس فعل "يشفي"، وهو أحد معاني كلمة "المغفرة" (٤٤: ٢ ص ١٣٤)، ولذلك يصف الرب بأنه "الطبيب والمخلص".

فكيف شفى الطبيبُ الطبيعةَ الإنسانية؟

> "كان مرض الموت والفساد محتاجاً إلى الحياة، حتى كما تمكن الموت من الجسد تتمكن منه الحياة" (٤٤: ٤ ص ١٣٤).

وجاء الحياة، وتمت شركة الحياة في المائت والفاسد. فماذا حدث؟

"لبس الجسدُ الحياةَ بدل الموت"، ثم "نزع عنه الفساد"، وجدَّد المسيحُ الطبيعةَ الإنسانية، وغلبَ الموت؛ لأنه حل بالجسد واتحد به.

لهذا السبب كان معقولاً جداً أن يلبس المخلص جسداً، حتى إذا ما اتحد الجسد "بالحياة" لا يبقى (الجسد) في الموت كمائت، بل يقوم إلى عدم الموت، إذ يلبس عدم الموت. وما دام قد لبس الفساد، فما كان ممكناً أن يظهر الموت إلَّا في الجسد وفقاً لطبيعة الجسد، لهذا لبس المسيح جسداً لكي يلتقي بالموت في الجسد ويبيده .. الرب هو الحياة. أحيا ما كان مائتاً" (٤٤: ٥ ص ١٣٥).

فالأمر الملكي كان قادراً على إبعاد الموت (٤٤: ٨ ص ١٣٦)، ولكن كان من الضروري أن يعيد الله عدم الموت بالشركة في الكلمة، ويرد نعمة الصورة، ولكي يملأ الإنسان من الحياة ومن لاهوته (٤٥: ١ ص ١٣٧)، وهكذا في عبارة ختامية يقول

أثناسيوس: "لأنه تأنس (صار إنساناً)، لكي نصير نحن آلهة" (٥٤: ٣ – ص ١٥٩)، وشرح هذه العبارة بكلماته الواضحة وحصر التألُّه في هذه المعاني:

– لكي يعطينا فكرة عن الآب غير المنظور.

– نرث عدم الموت، "فإن البشر الذين كانوا يتألمون والذين لأجلهم احتمل كل ذلك، قد خلصهم وحفظهم مثله في حالة عدم التألم" (٥٤: ٣ ص ١٥٩).

ثانياً: آدم الأول وآدم الثاني في المقالات ضد الأريوسيين

ما حدث في آدم الأول لا يمكن أن يحدث مرة ثانية في آدم الجديد

ما بعد المسيح:

أباد الربُ الموتَ، وبذلك أباد الخطية ... هذا هو التغيير الجذري الذي حدث في كيان الإنسانية، ذلك الكيان الذي أخذه المسيح من العذراء القديسة مريم والدة الإله، وحوَّله وقدَّسه ومجَّده ورفعه إلى مجد اللاهوت وقوته، مع بقاءه ناسوتاً.

يقول القديس أثناسيوس إن آدم كان "أول الطريق"، ويكتب التعليم الإنجيلي:

> "الطريق الأول الذي بدأه آدم، انحرف وتاه وقادنا إلى الموت بدل البقاء في الفردوس الذي سمعنا فيه أنك تراب وإلى التراب تعود" (ضد الأريوسيين ٢: ٦٥).

وجاءت البداية الجديدة في المسيح، فماذا حدث لهذا الطريق الجديد؟ يجيب القديس أثناسيوس:

> "لَبِس كلمة الله محب البشر الجسد المخلوق بمشيئة الآب لكي يحيي

بدم نفسه هذا الجسد الذي أماته الإنسان الأول بسبب تعديه" (المرجع السابق).

وهكذا جاء الرب لكي يصبح بدايةً جديدةً، ليست مثل البداية الأولى، هذا الشخص ليس هو آدم الأول، وحسب كلمات القديس أثناسيوس:

"لا يمكن أن يكون هو الإنسان الضعيف الترابي .. لأنه في الخليقة الأولى بسبب التعدي صار البشر بلا إيمان، وهلكت الخليقة الأولى بسبب تعدي آدم، ولذلك كانت الحاجة إلى آخر، يقوم بتجديد الخليقة الأولى ويحفظ الخليقة الجديدة التي سوف تُخلق، وبسبب محبة الله للبشر لم يكن آخر يُخلق غير الرب نفسه لكي يكون أول طريق الخليقة الجديدة .. لكي لا يحيا البشر فيما بعد حسب الخليقة الأولى، بل حسب الخليقة الجديدة التي المسيح هو أول طريقها. إذن فلنقتفِ أثره هو؛ لأنه قال: "أنا هو الطريق". وأيضاً يعلِّم الرسول بولس (عن هذه الحقيقة) في رسالته إلى أهل كولوسي قائلاً: "هو رأس الجسد الكنيسة، الذي هو البداية، البكر من الأموات" (كولوسي ١: ١٨)" (المرجع السابق).

وهكذا يتضح لنا أن الخليقة الجديدة ليست مثل الخليقة القديمة؛ لأن آدم الأول الذي سقط، ليس مثل آدم الثاني "الرب من السماء".. وهكذا كان تجسُّد الرب الخلق الجديد حسب التعليم الرسولي، وهذه هي كلمات مُعلِّم الأرثوذكسية:

"المسيح هو بدايةٌ جديدةٌ بسبب القيامة من الأموات.. وهكذا خُلِقَ المخلص بحسب الجسد، وصار أول الذين خُلِقوا من جديد، وصار الجسد البشري الذي لبسه الذي اتخذه هو باكورتنا، وبعده يأتي الشعب الجديد الذي كما قال داود: خُلق (مز ١٠٢: ١٨)" (ضد الأريوسيين ٢: ٦٦).

ويقارن القديس أثناسيوس بين الشعب القديم المولود حسب الجسد من آدم، والشعب الجديد المولد حسب الروح من المسيح، ويقول:

"لن نسمع بعد اليوم: لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت، بل نسمع: حيثما أكون أنا تكونون أنتم أيضاً" (المرجع السابق).

خلقٌ جديدٌ كاملٌ يختلف عن الخلق الأول

ويكمل القديس أثناسيوس المقارنة، ويقول:

"إن الإنسان الأول صار ناقصاً بسبب المخالفة وصار ميتاً بالخطية" (ضد الأريوسيين ٢: ٦٦).

وماذا حدث؟ يجيب القديس أثناسيوس:

"لَبِسَ كلمة الله الكامل الجسدَ الناقص، لكي بعد أن يوفي الدين عنا، يكمل بنفسه ما هو ناقص عن الإنسان، فالإنسان ينقصه الخلود وطريق (الحياة)، إلى الفردوس" (ضد الأريوسيين ٢: ٦٦).

وعندما أكمل الرب ما هو ناقص ورد النعمة، أي أوفى الدين الذي علينا، كما يقول أثناسيوس نفسه:

"لأنه أكمل الخليقة شافياً جراحنا ومانحاً إيانا القيامة من الأموات... لأن الخليقة صارت ناقصةً ومشوهةً بسبب التعدي... ولكي بعد أن يُكمِّل الخليقة ويتمم خلقتها، يُحضر الكنيسة إلى الآب كما قال الرسول: "لا دنس فيها ولا غضن .. بل تكون مقدسة وبلا عيب" (أف ٥: ٢٧). إذن فقد كمُل فيه الجنس البشري، وأُعيد تأسيسه كما كان في البدء، بل بالأحرى بنعمةٍ أعظم من النعمة الأولى، لأننا بعد القيامة من الأموات لن نخاف الموت بعد، بل سنملك

في السموات مع المسيح على الدوام" (ضد الأريوسيين ٢: ٦٧).

وهكذا لا يجوز لنا أن نتصور أنه بعد المسيح يمكن أن نعود إلى حالة آدم بعد السقوط؛ لأننا لن نموت، بل سنملك مع المسيح. وإذا كان الجنس البشري قد "كمُل وأُعيد تأسيسه" على عدم الفساد، وعلى مَن هو الحياة، فإن الخطية لن تسودنا كما قال الرسول لكي تجلب معها حكم الموت، بل صار اتحادُنا بالرأس الذي هو المسيح بدايةَ حياةٍ جديدةٍ، ووجودٍ جديد حسب آخر عبارة في الفقرة السابقة التي أخذناها من المقالة الثانية في الرد على الأريوسيين:

> "وإذ قيل بواسطة الكلمة أنت تراب والى التراب تعود، هكذا أيضاً قد تحققت الحرية بالكلمة نفسه وفيه، وبه قد صار إبطال الدينونة" (٢: ٦٧).

الفرق الجوهري بين السقوط والخلاص:

لقد عالج القديس أثناسيوس هذه النقطة الهامة في أكثر من مكان من كتاباته، ففي معرض محاورته مع المعترضين، يضع سؤالهم كجزء هام في الفصل ٤٤ من تجسد الكلمة، ويؤكد على حقيقة هامة، وهي إن الله كان قادراً بكلمةٍ، أن يُبطل الموت ولعنة الموت، أي كان الله قادراً على أن يعيد الحياةَ للإنسان بنفس القوة التي خلق بها الإنسان. فيقول:

> "ولعلهم –المعارضون– يفضلون أن يقولوا إن كان الله قد أراد أن يُصلح البشرية ويخلصها، وجب أن يتمم ذلك بمجرد نطق ملكي كريم، دون حاجة إلى تجسُّد الكلمة، أي بنفس الطريقة التي اتبعها سابقاً عندما أوجدها من العدم" (٤٤: ١ ص ١٣٣).

والاعتراض يبدو في شكله اللغوي والفكري معقولاً، ولكن جوهره فارغ وعديم

الجدوى، بل ويُبطل نعمة الله ومحبته. وبالرغم من أن القديس أثناسيوس كان قد أجاب على هذا الاعتراض في الفصل ٤٤ من تجسد الكلمة، إلَّا أنه يجيب على ذات الاعتراض في المقالة الثانية في الرد على الأريوسية مؤكداً:

> "لو أن الله قال كلمة واحدة وأبطل اللعنة بالكلمة التي قالها لظهرت قوة الله الذي أعطى الأمر" (٢: ٦٨). وظهور قوة الله أمر جيد، ولكن – كما يلاحظ القديس أثناسيوس – "كان الإنسان سيظل كما كان آدم قبل العصيان" (ضد الأريوسيين ٢: ٦٨).

وما هي مشكلة بقاء الإنسان كما كان آدم قبل العصيان؟ ألا يبدو هذا أمراً جيداً ومقبولاً وحسناً؟ ويدرك القديس أثناسيوس أنه لا بُد وأن يشرح الأمر بشكل أوفق، ولذلك يرتِّب الشرح على هذا النحو:

١– في البدء عندما لم يكن للخليقة وعلى رأسها الإنسان نفسه أي وجود، كان "النطق الملكي الإلهي" مطلوباً وكان هو أداة الخلق (تجسد الكلمة ٤٤: ٢ ص ١٣٣).

٢– بعد أن خُلِق الإنسان بالأمر الإلهي وبالنطق الملكي، وسقط الإنسان في الخطية، "أصبح الأمر يحتاج إلى علاج ما هو موجود ووصل إلى تلك الحالة (الخطية والموت)" (تجسد الكلمة ٤٤: ٢ ص ١٣٣).

٣– وبعد السقوط –كما يقول معلِّمنا العظيم– أن الإنسان "تعلَّم كيف يعصى" (المقالة الثانية ضد الأريوسيين: ٦٨). ومعرفة الإنسان بالخطية كانت حسب عبارة القديس أثناسيوس ستجعل حالة الإنسان "أسوأ مما كان في الفردوس" (ضد الأريوسيين ٢: ٦٨). والسبب ظاهر؛ لأن بقاء المعرفة الشريرة في خبرة الإنسان سوف يعرِّضه بشكل دائم إلى الموت. وحسب عبارة القديس أثناسيوس سيجد الله نفسه "يأمر ويبطل اللعنة إلى ما لانهاية" (المرجع السابق).

٤– وكان البشر كما يقول القديس أثناسيوس: "تحت سلطان الشر بسبب استعبادهم للخطية إذ هم يقترفون الخطية" (المرجع السابق).

٥– وكان الجسد سيظل خاضعاً للموت بسبب حكم الناموس أو الشريعة التي تقضي بقتل الخطاة جميعاً دون استثناء.

الموت الذي امتزج بالحياة:

ويقدم القديس أثناسيوس أهم فقرة في رده على هذا السؤال، وهي خاصة بالموت في الفصل ٤٤ من تجسد الكلمة:

> ١– "لو كان الموت خارج الجسد لكان من اللائق أن تتصل به الحياة من الخارج" (٤٤: ٥ ص ١٣٤).
>
> ٢– "أما وقد صار الموت ممتزجاً بالجسد وسائداً عليه .. فكان مطلوباً أن تمتزج الحياة به" (٤٤: ٥ ص ١٣٥).
>
> ٣– "إذا ما لبس الجسد الحياة بدل الموت نزع عنه الفساد" (٤٤: ٥ ص ١٣٥).

لذلك تجسَّد الكلمة:

> ١– "لهذا السبب كان معقولاً جداً أن يلبس المخلصُ جسداً، حتى إذا ما اتحد الجسد بالحياة لا يبقى في الموت كمائت، بل يقوم إلى عدم الموت، إذ يلبس عدم الموت" (٤٤: ٦ ص ١٣٥).
>
> ٢– "لبس المسيح جسداً لكي يلتقي بالموت في الجسد ويبيده؛ لأنه كيف كان ممكناً إقامة الدليل على أن الرب هو الحياة، لو لم يكن قد أحيا ما كان قابلاً للموت" (٤٤: ٦ ص ١٣٥).

٣- "لو كان الموت قد أُبعِد عن الجسد بمجرد إصدار أمرٍ من الله، لبقى -رغم ذلك- قابلاً للموت والفساد حسب طبيعة الأجساد" (٤٤: ٨ ص ١٣٦).

الشركة في الطبيعة الإلهية بفضل تجسد الكلمة:

يقع الذين يقاومون الشركة في الطبيعة الإلهية في شَرَك الهرطقات القديمة، وبالذات مدارس الغنوسية وتعليم الفلسفة اليونانية عن خلود الكون وأزلية المادة. وخطأ الذين يقاومون الشركة في الطبيعة الإلهية ظاهرٌ جداً، إذا تذكرنا أن الحقيقة الأساسية في العقيدة القويمة أي الأرثوذكسية، هي أن كل الأشياء خُلِقَت من العدم، ولذلك فهي ليست أزلية ولا أبدية[١]. ولكن، لكي تبقى الخليقة السماوية، أي رتب الملائكة والقوات السماوية، ولكي يبقى البشر في الوجود، احتاج الكل إلى نعمة الحياة الأبدية من الله، أي الشركة في أبدية الله. وشركة الإنسان لا تجعل الإنسان "أبدياً" مثل الله، وإنما تجعل الإنسان "شريكاً". والفرق ليس فرقاً لغوياً، بل هو فرقاً أنطولوجياً[٢]، بحتاً. فالله أبديٌ بالطبيعة، بينما يصبح الإنسان -بسبب شركته في أبدية الله- باقياً إلى الأبد، وحيَّاً إلى الأبد بفضل الشركة. فالله لا يأخذ حياته وجوهره من آخر، ولذلك فسيادته ذاتية، وسلطانه ذاتي لا يُستمد من مصدر آخر خارج كيانه وجوهره الإلهي. أمَّا الإنسان، وبفضل نعمة "الحياة الأبدية في المسيح يسوع" (رو ٥: ٢١ - ٢٢)، فهو يحيا حياةً أبديةً مستمدةً من الله، ومحدودةً بالجوهر الإنساني الذي لا وجود له إلَّا بالقدرة الإلهية. هذه حياةٌ لا تموت، ليس بفضل القدرة الإنسانية، بل بفضل القدرة الإلهية. وعندما يشترك الإنسان في أبدية الله، فهو يضع ذاته تحت الطاعة ويخضع للنعمة الآتية إليه من خارج جوهره أي من الله، أمَّا الله فهو لا يخضع ولا يطيع الإنسان، بل يملك كيانه وقدراته.

---

(١) يقوم البعض عن حسن نية وجهل بالتمييز بين الأزل والأبد، والكلمة الأولى "أزل" سريانية آرامية. والكلمة الثانية "أبد" عربية وكلاهما بمعنى واحد، وهي تعني الذي لا بدء له ولا نهاية له، أو بلغة عربية جيدة: "الواجب الوجود".

(٢) أي فرق في الوجود ذاته.

وهكذا يبطُل الادعاء بأن الشركة في الطبيعة الإلهية هي عودة لمذهب الفلسفة والتصوف القديم الذي ساد مدارس الغنوسية؛ لأن الإنسان لا يتحول، وإنما يظل محدوداً حسب نوع وحدود جوهره المخلوق من العدم. وهو لا يصبح إلهاً بالطبيعة، بل إلهاً بالنعمة. وهذا فرق كبير جداً، لا يجب إسقاطه بالمرة أثناء احتدام الجدل.

الفرق بين الطبيعة والنعمة:

١– الطبيعة الإلهية لا تحتاج إلى النعمة؛ لأنها واجبة الوجود وكائنة منذ الأبد. أمَّا المخلوقات فهي تحتاج إلى النعمة، وكائنة بنعمة الله وغير قادرة على البقاء بقدراتها مهما كانت، ولذلك فهي تحت السلطان والسيادة الإلهية، أو حسب كلمات التقوى الأرثوذكسية في صلاة الصلح في القداس الكيرلسي: "الذي الكل خاضع له تحت صولجان ملكه".

٢– وما هو كائنٌ في جوهر الله، خاصٌ بحرية ومحبة الله لا يخضع لآخر مهما كان. أمَّا ما هو مُعطى للإنسان أو الملائكة، فهو لا ينتمي إلى حرية الاختيار عند المخلوقات بالمرة، إذ لا يملك الإنسان أو الرتب الملائكية التصرف فيه بالمرة. وكما قال الرسول بولس: "قارنين الروحيات بالروحيات"، فإننا نرى في موهبة إخراج الشياطين مثالاً يؤكد لنا أن البشر لا يملكون إصدار أمر للشيطان، بل باسم يسوع المسيح أي بقوة وسلطان المسيح، وهذا في حد ذاته ما يجعل الشيطان يهرب من قوة المسيح التي تعمل حسب إرادة المسيح وليس حسب إرادة الذين يطردون الأرواح النجسة. ولا يجب عدم الإقلال بالمرة من أهمية حرية الاختيار؛ لأن حرية الاختيار تنتمي إلى الإرادة وتعمل حسب حدود الإرادة. فإذا كانت العطية والنعمة مستمدة من إرادة الله، صارت حركة وقوة الإرادة الإنسانية آتية من مصدر آخر هو الله، وليس من جوهر الطبيعة الإنسانية، وبالتالي تقع في دائرة السلطان الإلهي.

٣– والتمييز بين الجوهر والنعمة هو تمييزٌ ضروري؛ لأن الجوهر الإلهي هو الواهب، وهو لا يَهِب ما يلغي الفرق بين الأبدي بالجوهر والمخلوق الذي صار أبدياً بفضل النعمة. ربما هذا المثال هو أوضح ما يمكن أن يقال عن فيضان مياه النهر التي تصل إلى قناة صغيرة تمتلئ بالماء الآتي من النهر، وتظل مع ذلك قناةً صغيرةً. والعبرة هنا ليس بمقارنة "الكم"، بل بمقارنة المصدر، والحركة، والغاية، بالقبول والخضوع والاستسلام.

تألُّه الجسد الإنساني في المسيح:

يقول معلمنا أثناسيوس في ردِّهِ على الأريوسيين الذين أنكروا إلوهية الابن الكلمة فوقعوا في شرك الهرطقة الغنوسية، وهي لم تكن مجرد إنكار إلوهية الابن، بل إنكار تجسده، وإنكار هبة وعطية الحياة الأبدية (ضد الأريوسيين ٢: ٧٠)، ولذلك يضع القديس أثناسيوس الاعتراضات الأرثوذكسية ضد الأريوسيين:

١– "لو كان الابن مخلوقاً لظل الإنسان مائتاً كما كان قبلاً، حيث انه لم يتحد بالله" (المقالة الثانية ضد الأريوسيين: ٦٩).

٢– "ليس في قدرة أي مخلوق أن يعطي الخلاص للخليقة، إذ هو نفسه في حاجة إلى الخلاص" (المرجع السابق).

لكن ما هو الذي عجزت كل المخلوقات عن الخلاص منه؟

١– خضوع الجميع للموت.
٢– خضوع الجميع إلى اللعنة والفساد (المرجع السابق: ٦٩).
٣– خضوع الجميع لسلطان الشيطان (المرجع السابق).

آدم الثاني الجديد الربُّ من السماء:

يقول القديس أثناسيوس إن الابن ربنا يسوع المسيح:

١- "كان مختلفاً عن الجميع .. لأن الكلمة عندما لبس الجسد أبطل منه كلية كل لدغات الحية" (ضد الأريوسيين ٢: ٦٩).

٢- أبطل مع لدغات الحية، "الموت الذي يتبع الخطية" (المرجع السابق).

٣- "ولأننا متَّحدون مع الله في المسيح، فإننا لن نمكث كثيراً بعد على الأرض، بل كما قال هو نفسه حيث يكون هو هناك نكون نحن أيضاً" (يو ١٤: ١٣).

جسد مجده، وجسد تواضعنا:

يقول الرسول بولس عن مجد القيامة: "الذي سيغير جسد تواضعنا لكي يكون على صورة جسد مجده" (فيليبي ٣: ٢١)، ولاحظ أيها القارئ كلمة "صورة جسد مجده" لأنها الكلمة التي تحدد علاقة الأصل: المسيح، بالفرع أي البشر؛ لأن كل الأشياء تأخذ أصلها من المسيح، فهو "الملء"، ونحن جميعاً من ملئه أخذنا "نعمةً فوق نعمة" (يو ١: ١٦). ويشرح القديس أثناسيوس التعليم الرسولي مؤكداً أن جسد مجد المسيح يؤكِّد إلوهية المخلص، ويؤكد إنه ابن الله، ويؤكد مجد نعمة عدم الفساد التي أعطاها لنا، فيقول:

"إن الحق يوضِّح أن الكلمة ليس مخلوقاً، بل بالحري هو نفسه خالقهم، ولذلك فقد لبس الجسد البشري المخلوق، لكي بعد أن يجدده كخالق، فإنه يؤلِّهه في كيانه، وهكذا يُدخلنا جميعاً إلى ملكوت السموات على مثال صورته. لأنه ما كان للإنسان أن يتألَّه لو أنه اتحد بمخلوق، أو لو أن الابن لم يكن إلهاً حقيقياً. وما كان للإنسان أن يقف في حضرة الآب لو لم يكن الذي لبس الجسد هو بالطبيعة

كلمته الحقيقي" (ضد الأريوسيين ٢: ٧٠ راجع الترجمة العربية ص ١٠٨).

الفصل التاسع

وجودنا في المسيح بالروح القدس حسب شرح القديس أثناسيوس الرسولي في رسائله إلى سرابيون

اهتم الغرب برسائل القديس أثناسيوس إلى سرابيون لعدة أسباب فهي:

أولاً: أول كتاب يُكتب عن إلوهية الروح القدس في الكنيسة الجامعة، وقد كُتب قبل كتاب العلامة ديديموس الضرير.

وثانياً: لأنها أكبر فهرس عرفته الكنيسة الجامعة لموضوع الروح القدس، حيث حشد القديس أثناسيوس كل نصوص الكتاب المقدس الخاصة بهذا الموضوع وأعطى لها التقسيم العقيدي الذي أضاف لهذه النصوص "لمسة التقليد الرسولي السكندري"، أي أن التقسيمات جاءت حسب قواعد التقليد الكنسي، ولم يكن هذا تقسيماً جزافياً.

وثالثاً: كان شرح القديس أثناسيوس يتضمن الكثير من الإشارات إلى طقوس

وممارسات الكنيسة وهو أمر له أهميته القصوى.

مثال على الأهمية الليتورجية والطقسية:

يقول القديس أثناسيوس:

"وإذا كُنا نتجدد بروح الله، فإن الروح الذي يقال عنه الآن (بواسطة الهراطقة)، إنه خُلِقَ، لا يشير إلى الروح القدس، بل إلى روحنا (نحن البشر)" (الرسائل عن الروح القدس إلى الأسقف سرابيون – مركز دراسات الآباء، مايو ١٩٩٤ الرسالة الأولى: ١٠ ص ٤٦).

فالروح لا يمكن أن يكون مخلوقاً؛ لأنه روح الله، ولذلك يضع أثناسيوس هنا لغة طقوس الكنيسة وتقوى الأرثوذكسية:

"وهو الذي فيه (الروح القدس)، بواسطة الكلمة يكمل الآب كل الأشياء ويجددها" (١: ١٠ ص ٤٦).

فما هو المقصود بـ"يكمِّل ويجدِّد"؟

والجواب هو كما نرى في لاهوت الكنيسة الشرقية، أن كمال الخليقة هو بلوغ الخليقة إلى غايتها وهي الله؛ لأن الإنسان المخلوق على صورة الله احتاج إلى تجسد الكلمة لكي يجدد الكلمةُ الخليقةَ ويكمِّلها ويعطيها نعمة الروح القدس، فتصل إلى غاية الخلق، وهو الاتحاد بالثالوث.

هذا يشرحه القديس أثناسيوس في نفس الرسالة الأولى فقرة ٢٩ حيث يضع عدة تعبيرات كنسية هامة وهو يسأل الهراطقة:

"هل الله ثالوث أم اثنان؟ فإذا كان اثنين فعليكم أن تحسبوا الروح

القدس ضمن المخلوقات، وبهذا يكون إيمانكم ليس إيماناً بإله واحد "الذي على الكل وبالكل وفي الكل[١]" (أف ٤: ٦)".

"إن التكميل الذي تحسبون أنكم تمارسونه ليس انضماماً تاماً إلى اللاهوت، لأنكم تمزجون المخلوق باللاهوت.. وتضعون الخليقة مع الخالق" (١: ٢٩ ص ٨٤ راجع الملاحظة ٢٧ في ص ١٦٥ ترجمة مركز الآباء).

والتكميل هنا، هو طقس الانضمام إلى الكنيسة الجامعة.

وقبل ذلك يقول أثناسيوس:

"لو كان الروح القدس مخلوقاً، لما كان لنا اشتراك في الله بواسطته. فإن كُنا قد اتحدنا بمخلوق، فإننا نكون غرباء عن الطبيعة الإلهية حيث أننا لم نشترك فيها" (١: ٤ ص ٧٥).

والشركة في الطبيعة الإلهية، يؤكد معناها القديس أثناسيوس على هذا النحو:

١- يقول في الرسالة الأولى (٦ ص ٣٧)، عن الروح القدس:

"يكمل فيه (الآب)، كل معرفتنا عن الله (أي كل التعليم عن الثالوث)، ويتمم كمالنا الخاص (بنا كبشر)، الذي به وحَّدنا مع شخصه، ومن خلال (هذه الوحدة)، مع الآب".

٢- هذه الشركة هي عطية الآب بالابن في الروح القدس، ولذلك يقول في نفس الرسالة:

"فإنه لم يوحِّدنا معه (الابن)، ومع الآب بواسطة مخلوق، بل بواسطة

---

(١) منذ زمن القديس ايريناوس صار تفسير على الكل الآب، وبالكل الابن، وفي الكل الروح القدس.

الروح القدس. وعندما وَعدَ بالروح القدس، لم يقل أنه سيرسل ملاكاً، بل روح الحق الذي من عند الآب ينبثق (يوحنا ١٥: ١٦)، والذي يأخذ من الابن ويعطي" (ص ٥٢).

والعبارة الأخيرة "يأخذ من الابن"، هي تسليم الكنيسة الجامعة "في الروح القدس".

لا تقدم هذه الدراسة إحصائية عن المفردات والكلمات اللاهوتية للقديس أثناسيوس، ولكن يكفي أن نقدم بعض الأمثلة.

يقول أثناسيوس:

"إن الله الآب يعمل كل الأشياء بالابن وفي الروح القدس".

وقدَّم القديس أثناسيوس بعض النماذج:

١– التجديد في المعمودية المقدسة ١: ٩ ص ٤٦.
٢– الاتحاد بالله ١: ١١ ص ٥٢.
٣– قيادة شعب الله قديماً ١: ١٢ ص ٥٣.

لكن ما هو جدير بالاعتبار، هو الكلام عن النعمة مؤكِّداً أن صفات النعمة الإلهية، هي:

١– "نعمة واحدة من الآب تتم بالابن في الروح القدس" (١: ١٤ ص ٥٧). وهكذا تستمد النعمة صفة الوحدانية من وحدة جوهر الثالوث، إذ يقول معلمنا أثناسيوس:

"الثالوث القدوس المبارك غير منقسم وهو متَّحد في ذاته .. لأن النعمة التي من الآب هي واحدة وهي تتم بالابن في الروح القدس" (١: ١٤ ص ٥٧).

وعدم انقسام جوهر الثالوث إلى خالق ومخلوق (حسب التعليم الأريوسي)، هو الذي يجعل وحدتنا مع الله وحدة حقيقية، ويقدم أثناسيوس عدة تشبيهات من الكتاب المقدس تؤكد هذه الحقيقة في الجزء رقم ١٩ من الرسالة الأولى حيث يستخدم الينبوع – النهر – النور، مؤكِّداً أن الآب هو الينبوع (١: ١٩ ص ٦٥)، والابن هو النهر (١: ١٩ ص ٦٥)، والروح القدس هو المياه التي نشربها (١: ١٩ ص ٦٦)، ونفس الكلام ينطبق على النور.

٢– هذه النعمة الواحدة تجعلنا نحيا بالروح القدس في المسيح المصلوب والحي:

> "وحيث أننا مُحيون بالروح، فالمسيح نفسه يحيا فينا، لأنه يقول "مع المسيح صُلبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ" (غلا ٢: ٢٠)، هذه الحياة المصلوبة هي نعمة التبني "كما أن المسيح ابن حقيقي (للآب)، فإننا عندما نأخذ الروح نصير أبناء لأن الكتاب يقول "أخذتم روح التبني (رو ٨: ١٥)" (١: ١٩ ص ٦٦).

٣– والنعمة الواحدة هي نعمة التقديس، وهي حسب كلمات القديس أثناسيوس:

> "قداسة واحدة مستمدة من الآب بالابن في الروح القدس" (١: ٢٠ ص ٦٩).

لأن الإيمان الأرثوذكسي يعلِّمنا هذه الحقيقة:

> "حينما يوجد الروح فينا يقال إن الابن فينا، وحينما يكون الابن فينا يقال إن الآب فينا .. وعندما يقال إن الثالوث فينا .. يكون الثالوث حقاً ثالوثاً واحداً" (١: ٢٠ ص ٦٨)، فالله يقدِّس كل المخلوقات بالروح القدس (١: ٢٣ ص ٧٣)، ولذلك يُدعى الروح القدس، وهذا هو تعبير الطقس

والتسليم الكنسي "روح القداسة والتجديد" (١: ٢٢ ص ٧٢)، والتقديس يتم في مسحة الميرون؛ "لأننا نختم بالروح القدس، ونُمسح بواسطته ومنه وفيه نتعلم كل حقائق الإيمان" (١: ٢٣ ص ٧٤).

٤ – وأخيراً:

"الابن له المجد يعطي نعمة الروح القدس لكي تصبح الخليقة شركاء الروح القدس" (١: ٢٧ ص ٨١)، "لأن الروح القدس حاضر فينا بسبب المسيح أي بسبب تجسده وموته وقيامته" (١: ٢٦ ص ٨١).

مواهب الآب السماوي هي مواهب الروح القدس:

يجب أن نميز ليس فقط لغوياً، بل لاهوتياً بين النعمة العامة الواحدة التي تعطي لكل مؤمن بالمسيح، وهي نعمة الحياة الأبدية (رو ٥: ٢١)، وبين مواهب الروح القدس المتعددة التي يوزِّعها الروح القدس مثل إخراج الشياطين ومواهب الخدمة المتنوعة حسب التسليم الرسولي في (١كو ١٢: ١، إلى آخر الإصحاح)، هذه المواهب تمنح بواسطة الكلمة (١: ٣٠ ص ٨٦ – ٨٧)، لأنها تعطى لجسد المسيح أي الكلمة، أي الكنيسة:

"فالمواهب التي يقسِّمها الروح لكل واحد تُمنح من الآب بالكلمة، لأن كل ما هو من الآب هو أيضاً من الابن. إذن، فتلك الأشياء التي تعطى من الابن في الروح هي مواهب الآب.." (١: ٣٩ ص ٨٧).

لكن نعمة الشركة التي يقول عنها أثناسيوس:

"النعمة والهبة تُعطى في الثالوث من الآب وبالابن في الروح القدس، وكما أن النعمة المعطاة هي من الآب بالابن، هكذا لا يكون لنا شركة في العطية إلَّا في الروح القدس؛ لأننا حينما نشترك فيه تكون لنا محبة الآب

ونعمة وشركة الروح نفسه" (١: ٣٠ ص ٨٧).

هذه النعمة، حسب تعبير القديس أثناسيوس هي "فعل الثالوث الواحد"؛ لأن ما يُعطى "إنما يُعطى في الثالوث، والكل من إلهٍ واحدٍ" (١: ٣١ ص ٨٧). فالروح نفسه يُعطى في المعمودية (١: ٤ ص ٣٣)، ويُعطى بوضع أيدي الرسل (١: ٦ ص ٣٨)، هذا يجعل أثناسيوس يكتب موضحاً:

> "إلوهية الثالوث واحدة، إيمان واحد، وتوجد معمودية واحدة تُعطى فيه، وواحد هو التكميل في يسوع المسيح ربنا الذي به ومعه للآب مع الروح القدس المجد والقوة إلى دهر الدهور (٢: ٧ ص ١٣٠).

الفصل العاشر

الإفخارستيا تصنع الكنيسة

جسد المسيح المتألِّه، وسر الإفخارستيا:

عندما نقول إن ناسوت المسيح قد تألَّه بسبب اتحاده بأقنوم الابن الكلمة، فإن المعنى الواضح المعروف عند كل آباء الكنيسة الجامعة، هو أنه صار -أي الناسوت- الجسد الحي والمحيي. والتعبير الأخير "المحيي" نسمعه في كل قدَّاسات الكنيسة الأرثوذكسية: اليونانية، والسريانية، والقبطية، والأرمينية. ونكتفي هنا بعبارة الاعتراف الأخير في القداس القبطي "أؤمن وأعترف إلى النفس الأخير أن هذا هو الجسد المحيي الذي لأبنك الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح"، وتمضي كلمات الاعتراف تنقل إلينا التسليم الرسولي وتقول عن هذا الجسد:

- الذي أخذه من والدة الإله القديسة مريم.

- وجعله واحداً مع لاهوته بغير انفصال ولا اختلاط ولا تغيير[١].

---

(١) وردت هذه العبارات "من غير انفصال ولا اختلاط ولا تغيير" في صيغة الإيمان الذي أقره مجمع خلقيدونية في ٤٥١ وهي عبارات هامة تؤكد أرثوذكسية كنيسة مصر لأن مجمع خلقيدونية رفض الأوطاخية والنسطورية بهذه العبارات القاطعة التي تؤكد اتحاد الطبيعتين وقد أكد هذا المجمع في كل عبارة خاصة بالسيد المسيح الكلمات التي استخدمها القديس كيرلس السكندري، وبشكل خاص كلمة "الرب الواحد"، و "هو

– وأسلمه عنا على خشبة الصليب بإرادته وحده عنا كلنا.

فالجسد المحيي الذي لربنا يسوع المسيح هو الجسد المولود من القديسة مريم، وهو ذاته الجسد الذي أسلمه عنا على عود الصليب. وهو ذاته الجسد الذي يحمله خادم الأقداس في الصينية .. كل هذا عائد إلى القول الإلهي نفسه:

"خذوا كلوا هذا هو جسدي ..."

وكما يقول القديس أثناسيوس:

"الألفاظ أو الكلمات لا تسبق وجود الأشياء، أو وجود الطبائع، بل الطبائع توجد أولاً والألفاظ والكلمات تأتي بعد ذلك لكي تشير إليها وتعبر عنها (راجع ضد الأريوسيين ٢: ٣ راجع الترجمة العربية ص ١٢ – ١٣).

وهكذا كان الجسدُ كائناً قبل العبارات والكلمات والألفاظ التي تشير إليه وتدل عليه. وهكذا توجد الأشياء أولاً وبعد ذلك نعطي لها الأسماء والإشارات .. نحن لا نستطيع أن نطلق اسماً أو لفظاً على ما هو غير كائن. وهكذا أيضاً كما نرى في الواقع أن شهادة اللغة واللفظ والاسم هي شهادة هامة، لأنها تؤكد في الاستعمال اللغوي وجود شيء له اسم وله صفات. وإذا قالت الليتورجية: "هذا هو جسدي"، ثم بعد ذلك: "هذا هو الجسد المحيي .."، فإن الكلام لا يمكن أن ينفصل وينقسم إلى جسدين؛ لأن العبارات تدل على أن المعني هو ذلك الجسد:

– الذي أخذه من والدة الإله.
– الذي أسلمه على عود الصليب.
– وهو ذاته الجسد المحيي.

ذاته"، أو "هو عينه". فهو الواحد وهو ذاته المولود من الآب قبل كل الدهور، ولذلك هو مساوي للآب في الجوهر، ومولود من العذراء ومساوي لنا في الجوهر حسب ناسوته (راجع رسالة ٤٥ الترجمة العربية، مركز دراسات الآباء، القاهرة، ديسمبر ١٩٩٥).

الرب الواحد

كان صراع القديس كيرلس السكندري ضد الهرطقة النسطورية يدور حول محور واحد منه تفرعت كل القضايا الأخرى، هذا المحور هو "الرب الواحد". وكلمة "الواحد" التي تعود إلى التعليم الرسولي، هي التي جعلت القديس كيرلس يصوغ عبارته المشهورة "طبيعة واحدة متجسدة لله الكلمة". وعبارة "ربٌّ واحد" التي وردت في قانون الإيمان النيقاوي "نؤمن بربٍّ واحد يسوع المسيح"، هي التي جعلت تقسيم النسطورية للرب الواحد إلى طبيعتين[١]، منفصلتين بمثابة جحود لكلمة الإيمان بربٍّ واحد.

فالربُّ الواحد يجعل الحياة الواحدة المتجسدة هي نصيب المؤمنين به. وهكذا ينقل إلينا المسيح طبيعة الحياة الغالبة الموت، حياته القائمة من الأموات. هذه الطبيعة الغالبة للموت يقول عنها القديس كيرلس السكندري:

> – "ماذا يعني أنه تجسد؟ تدل هذه العبارة على أن الكلمة الذي من الله، تأنس. ونحن لا نقول إن طبيعة الكلمة تغيَّرت حينما صار جسداً .. بل بالأحرى تقول إن الكلمة قد وحَّد مع نفسه (كيانه)، أقنومياً، جسداً مُحيياً بنفس عاقلة، وصار إنساناً بطريقة لا يمكن التعبير عنها أو إدراكها".
>
> – "من أجل خلاصنا وحَّد الطبيعة البشرية بكيانه الأقنومي".
>
> – "إن كلمة الله حسب الطبيعة غير مائتٍ وغير فاسد؛ لأنه هو الحياة ومعطي الحياة ... فإن جسده ذاق الموت[٢]، وهكذا أيضاً عندما أرجع الحياة إلى جسده يُقال عن هذا إنه قام، ليس لأنه تعرض للفساد، حاشا، بل

---

(١) الحديث عن طبيعتين في المسيح تؤكده كل رسائل القديس كيرلس السكندري والخطأ ليس في الكلام عن الطبيعتين، بل الكلام عن عدم اتحاد الطبيعتين.

(٢) راجع عبارة صلاة الساعة التاسعة: "يا من ذاق الموت بالجسد ..".

لأن جسده قام ثانية. (الرسالة رقم ٤ – راجع ترجمة مركز الآباء رسائل القديس كيرلس نصوص الآباء ٢١ يوليو ١٩٨٨ ص ١٤ – ١٥).

وهكذا نستطيع أن نقول إن جسد الكلمة، جسد الرب الواحد الواهب الحياة للعالم (يوحنا ٦: ٣٣)، هو:

+ جسدٌ محيي.
+ جسدٌ يعطي الحياة.
+ جسدٌ لم يتعرض للفساد.

وبعد نص طويل عن الاتحاد الاقنومي في الرسالة رقم ١٧ (المرجع السابق)، يقول القديس كيرلس الكبير مؤكداً حقيقة الرب الواحد:

"نعترف بكل تأكيد أن الكلمة اتحد بالجسد أُقنومياً، ولذلك نحن نسجد لابن واحد الرب يسوع المسيح. نحن لا نجزئ ولا نفصل الإنسان (الناسوت)، عن الله (اللاهوت)" (ص ٢٤).

"المسيح واحد، وهو ابن ورب .. كلمة الله اتحد بالجسد أُقنومياً .. وبإخضاع جسده الخاص للموت، رغم أنه حسب الطبيعة هو الحياة وهو نفسه القيامة، لكي بواسطة قوته التي تفوق الوصف إذ قد داس الموت أولاً في جسده الخاص .. لكي يُعد الطريق إلى قيامة عدم الفساد أمام طبيعة الإنسان" (ص ٢٧ – ٢٨).

وبعد ذلك مباشرة يقول:

"ولكن من الضروري أن نضيف هذا أيضاً، وإذ نكرز بموت ابن الله الوحيد حسب الجسد، موت يسوع المسيح، ونعترف بقيامته من الأموات وصعوده إلى السموات، فإننا نقدم الذبيحة غير الدموية في الكنائس، وهكذا

> نتقبل البركات السرية ونتقدس ونصير مشتركين في الجسد المقدس، والدم الكريم للمسيح مخلصنا جميعاً .. لا كأُناسٍ يتناولون جسداً عادياً، حاشا، .. بل باعتباره الجسد الخاص للكلمة نفسه المعطي الحياة حقاً، وبسبب أنه صار واحداً مع جسده الخاص، أعلن أن جسده معطي الحياة، لأنه حتى وإن كان يقول لنا "الحق أقول لكم، إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه (يوحنا ٦: ٥٣)، فلا نستخلص من هذا أن جسده هو جسد واحد من الناس مثلنا .." (ص ٢٨ – ٢٩).

ويجيء تعليم الكنيسة الجامعة مدوياً مثل الرعد في الفصل الحادي عشر من الفصول الاثنى عشر التي تُسمى في الغرب "الحروم الاثنى عشر"، وهو اسم لم يستخدمه القديس كيرلس؛ لأن التعليم السليم يسبق الحروم. يقول القديس كيرلس:

> "مَن لا يعترف أن جسد الرب هو معطي الحياة وهو يخص الكلمة الذي من الله الآب، بل يقول إنه جسدٌ لواحد آخر غيره .... ولا يعترف بالحري أن جسده معطي الحياة كما قلنا لأنه صار جسد الكلمة الخاص به الذي يستطيع أن يهب الحياة لكل الأشياء، فليكن محروماً" (المرجع السابق هي ٣٨ – ٣٩).

تألُّه ناسوت المسيح في كتاب تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس الرسولي:

يؤكد القديس أثناسيوس أن أول تغيير حدث في ناسوت المسيح أنه صار بالقيامة "عديم الفساد"؛ لأنه "باكورة قيامة الجميع" (تجسد الكلمة ف ٢٠: ٢). "كان جسد المسيح جسداً بشرياً قابلاً للموت" (تجسد الكلمة ف ٢٠: ٤)، ولكنه "بفضل اتحاده بالكلمة لم يعد خاضعاً للفساد حسب طبيعته الإنسانية، بل خرج عن دائرة الفساد بسبب الكلمة الذي أتى ليحل فيه" (تجسد الكلمة ف ٢٠: ٤).

ويمكن للقارئ مراجعة عبارة "جسد قابل للموت" في المواضع الآتية من كتاب تجسد الكلمة (فصل ١٣: ٩ – فصل ٢٢: ٣ – ٤ – فصل ٣١: ٤ – فصل ٣٦ كله)، والسؤال الذي يجب أن نسأله: لماذا يستخدم القديس أثناسيوس هذا التعبير؟ والجواب من كلمات معلمنا أثناسيوس:

> "أخذ لنفسه جسداً قابلاً للموت، حتى بإتحاده بالكلمة الذي هو فوق الكل، يكون جديراً أن يموت عن الكل، وحتى يبقى في عدم فساد بسبب الكلمة الذي أتى ليحل فيه، وحتى يتحرر الجميع من الفساد، فيما بعد، بنعمة القيامة من الأموات" (فصل ٩: ١).

وتعبير جسد "قابل للموت"، هو ذات المعنى الذي يستخدمه القديس أثناسيوس في فصل ٨: ٤ "أخذ جسداً من أجسادنا مماثلاً لطبيعتها".

وهكذا، ومن واقع كلمات معلمنا العظيم نرى أن الرب "أخذ جسداً قابلاً للموت، حتى إذا أباد الموت فيه نهائياً أمكن تجديد البشر الذين خُلقوا على صورته" (فصل ١٣: ٩).

ويجمع أثناسيوس بين مبدأين أساسين في اللاهوت المسيحي عامةً، وفي اللاهوت الأرثوذكسي بشكل خاص:

أولاً: إن الابن الكلمة كلي القداسة (فصل ١٧: ٧).

ثانياً: إن كل المخلوقات قابلة للفناء والموت، وهي لا تفنى لأن الله هو الذي يحفظها من الفناء ويمنع عودتها إلى العدم.

والمبدأ الأول لا يحتاج إلى إثبات أو تأكيد، فهو مقبول من كل قارئ مسيحي يؤمن بقداسة الله. أمَّا المبدأ الثاني، فهو غير معروف في أغلب الكتب اللاهوتية التي نُشرت باللغة العربية في مصر في مطلع هذا القرن.

ويبدو أن لدينا خوفاً لا مبرر له من أن تأكيد فناء الخليقة وعدم قدرتها على البقاء إلى الأبد، يجعلنا في خندق واحد مع شهود يهوه وغيرهم من الذين ينادون بفناء الروح، وغيرها من أفكار قد تبدو قريبة من التعليم الأرثوذكسي، ولكن هنا يجب التمييز الدقيق بين ثلاثة قضايا هامة لا يمكن أن تترك للصدفة:

١– خلود المخلوقات وأزليتها حسب تعليم أغلب مدارس الفلسفة اليونانية، وفي مقدمتها أفلاطون وأفلوطين.

٢– خلود الإنسان روحاً فقط واندثار الجسد، وهو ما تعلِّم به الفلسفات والديانات القديمة، باستثناء الديانات التي تعلِّم بقيامة الجسد، مثل الديانة المصرية القديمة التي حفظت الجسد بواسطة التحنيط لكي يقوم من الموت.

٣– خلود الإنسان روحاً وجسداً بسبب نعمة الله. وبسبب حفظ الله للخليقة كخالقٍ، وكآب خلق وفدى وقدَّس الكل في المسيح وبالروح القدس.

فالخلود ليس طبيعةً في الإنسان، بل هو هبةُ الله في المسيح حسب كلمات الرسول بولس القاطعة: "أجرة الخطية هي موت، أمَّا هبة الله فهي حياة أبدية في المسيح يسوع ربنا" (رو ٦: ٢٣)، ويقول الرسول بولس أيضاً عن الله "ملك الدهور الذي لا يفنى ولا يُرى الإله الحكيم وحده" (١ تيمو ١: ١٧)، ويقول أيضاً عن الله: "الذي له وحده عدم الموت ساكناً في نور لا يُدنى منه" (١ تيمو ٦: ١٦)، وبعد هذه الكلمات القاطعة لا يجب أن نتردد في أن نقول إن الله هو وحده الخالد بالطبيعة.

ولذلك يقول معلمنا القديس أثناسيوس عن البشر:

> "كانوا قد دُعُوا "بحضور الكلمة" وتعطفه من العدم إلى الوجود، من الحالة الطبيعية الأولى، وهي عدم الوجود، فإنهم – بطبيعة الحال – متى تجردوا من معرفة الله، عادوا إلى العدم .. وبتعبير آخر يجب أن تكون النتيجة

الانحلال، وبالتالي البقاء في حالة الموت والفساد" (فصل ٤: ٥).

ويكرر نفس الكلام:

"لأن الإنسان إذ خلق من العدم، فإنه فانٍ بطبيعته، على أنه بفضل خلقته على صورة الله الكائن، كان ممكناً أن ينجو من الفساد الطبيعي، ويبقى في عدم فساد" (المرجع السابق فصل ٤: ٦).

ولاحظ دقة الكاتب واللاهوتي الأول للأرثوذكسية عبر عصورها، فهو يؤكد إمكانية عودة الإنسان إلى العدم، بل والبقاء "في حالة الموت والفساد"، وهي حالة انفصال الروح عن الجسد. وتحول الجسد إلى تراب، وبقاء الروح في الهاوية، وهي حالة الفساد؛ لأن الإنسان لا يعتبر إنساناً بالمرة إذا تحول إلى عنصرين منفصلين كل منهما بعيدٌ عن الآخر.

ما هو الفرق الدقيق بين شهود يهوه، والأرثوذكسية؟

والجواب هو أن الخلود ليس طبيعة في الإنسان؛ لأن خلود الإنسان الطبيعي، أي حسب الطبيعة يمنع عنه الموت. ولكن ما ينكره شهود يهوه هو أن الحياة الأبدية وقيامة كل الجنس البشري – بسبب قيامة المسيح – هي عطية ونعمة من الآب في ابنه الوحيد يسوع المسيح.

وإذا قال القديس أثناسيوس إن الروح تبقى في حالة الموت والفساد، فهو وضعٌ لا نملك أن نشرحه؛ لأنه بعيد عن خبرتنا الإنسانية، ولم تقدِّم أسفار الوحي الإلهي عنه سوى صورة أرضية مستعارة من الحياة الأرضية عن "الدود الذي لا يموت"، و "النار التي لا تطفأ"، وهي كلها محاولات لفظية تقرِّب حقيقة الوجود في حالة الموت بالنسبة للأشرار.

يقول القديس أثناسيوس إن الموت "صار له سلطان على كل الجنس البشري أكثر من سلطانه الطبيعي؛ لأنه أتى نتيجة تهديد الله في حال عصيان الوصية" (فصل ٥: ٢)، وهكذا بدأت الخليقة تسير نحو الموت مدفوعةً أولاً بالخطية التي جلبت معها الموت، وثانياً بتخلي نعمة الله عن الخليقة؛ لأن العصيان له عقوبة الموت، وبالتالي صارت سرعة الانحلال وسيادة الفساد أكبر ولم تعد حركة انتقال طبيعية، بل تحولت إلى حركة يسودها البُطل *Futility* (رو ٨: ٢٠).

جسد المسيح الحي القائم من الأموات:

يقول القديس أثناسيوس إن جسد المسيح قام من الأموات، وهو يؤكد ويكرر ذلك في الفصل ٣١ حيث يسأل هو نفسه:

"ماذا كان يمكن أن تكون نهاية الجسد إذ حلَّ الكلمة فيه؟"

ويجيب:

"لم يكن ممكناً إلَّا أن يموت، إذ هو جسدٌ قابلٌ للموت، ويقدَّم للموت عن الجميع، ولأجل هذه الغاية صوره المخلص لنفسه" (٣١: ٤).

هكذا قَبِلَ المسيح أن يصوِّر لنفسه جسداً قابلاً للموت. قَبِلَ موت الإنسان في تجسده، أي الطبيعة القابلة للموت، فلم يكن الموت غريباً بالمرة على ناسوت الرب، ولا ظل غريباً عنه حتى جاء إلى الجلجثة. هذا تعليم غريب عن الأرثوذكسية وُضِع في جدول الهرطقات القديمة تحت اسم "الدوسوتيين"، وهو اسم يؤكد لنا أن الذين علَّموا بهذه الفكرة كانوا أصلاً يعتقدون أن ناسوت الرب لم يكن ناسوتاً حقيقياً. ولكن الرب الذي تعب ونام وبكى وصلى .. الخ أعلن لنا أنه أخذ الطبيعة الإنسانية المائتة التي تبكي وتصرخ بصوت عالٍ، وتصلي بدموع حسب كلمات الرسول في عبرانيين (٥: ٧-١٠).

ولكن كما يقول القديس أثناسيوس:

"كان مستحيلاً أن يبقى مائتاً إذ صار هيكلاً للحياة، لهذا مات كجسد مائت، وعاد إلى الحياة بفضل الحياة التي فيه (لاهوت الابن الكلمة)، (المرجع السابق).

ويكرر القديس أثناسيوس نفس التعليم الأرثوذكسي في الفصل ٤٤ مؤكداً:

"ما دام الموت صار ممتزجاً بالجسد وسائداً عليه، كما لو كان متَّحداً به" .. هكذا كان من الضروري "أن تمتزج الحياة أيضاً بالجسد، حتى إذا ما لبس الجسد الحياة بدل الموت نُزع عنه الفساد. وفضلاً عن هذا فلو افترضنا أن الكلمة جاء خارج الجسد وليس فيه، لكان الموت قد غُلِب من المسيح وفقاً للطبيعة التي لا تموت أي اللاهوت، إذ ليس للموت سلطان على الحياة، ومع ذلك، فإن الفساد (عدم القدرة على البقاء إلى الأبد) كان سيظل لاصقاً بالجسد" (المرجع السابق ٤٤: ٥).

أمَّا القيامة، فقد جعلت الجسد الذي اتحد بالحياة، أي أقنوم الابن الكلمة "لا يبقى في الموت كمائت، بل يقوم إلى عدم الموت إذ يلبس عدم الموت، لهذا لَبِس المسيحُ جسداً لكي يلتقي بالموت في جسده ويبيده .. أحيا ما كان مائتاً" (٤٤: ٦).

الصفات الإلهية لناسوت المسيح في كتاب تجسد الكلمة:

يشرح القديس أثناسيوس الإيمان بالتجسُّد، وبالتحول العظيم في طبيعة الناسوت من واقع كلمات الرسول بولس في (١ كور ١٥: ٤٢ – ٤٥)، ومن هذه الكلمات أخذ صفات آدم الجديد الإلهية وهي ذات كلمات الرسول بولس.

آدم الأول	آدم الثاني
يُزرع في فساد	يُقام في عدم فساد
يُزرع في هوان	يُقام في مجد
يُزرع في ضعف	يُقام في قوة
يُزرع جسماً حيوانياً	يُقام جسماً روحانياً
آدم الأول نفساً حية	آدم الأخير روحاً محيياً

ويقول القديس أثناسيوس عن القوة:

"نال الجسد منه قوةً؛ لأنه هو القوة وهو الحياة" (٢١: ٥).

وعن عدم التألم، وهو صفة من صفات اللاهوت، يقول:

"وبمجرد احتكاك الموت به، أقامه فوراً في اليوم الثالث، حاملاً معه – كعلامة للظفر والغلبة – عدم الفساد وعدم إمكانية التألم اللذين حصل عليهما جسده" (٢٦: ١).

وعن عدم الفساد، يقول:

"أباد الربُ الفسادَ في الجسد بالموت والقيامة وبقوة الحياة" (فصل ١٣٤: ٨ – راجع أيضاً فصلً ٩: ٢ – وفصل٢٠: ٢).

كما يقول أيضاً:

"قدَّس الجسد" (فصل ١٧: ٧).

وكذلك:

"أبطل الموت بتقديم جسده" (١٠: ١).

"الجسد هو الأداة (*Organon*)، التي تعلن نعمة القيامة (٢١: ١)، لأن شوكة الموت قد "أبيدت بعدم فساد جسده" (٢٣: ٤)، "وبجسده أعد الطريق للصعود إلى السموات" (٢٥: ٣).

جسد الحياة:

هكذا صار الجسد هو جسد الحياة. وجدير بنا أن نقف هنا بُرهةً عند كلمة "الحياة"، كأحد ألقاب المسيح في كتاب تجسد الكلمة، وكأحدى الكلمات الهامة التي أخذها القديس أثناسيوس من إنجيل معلمنا يوحنا.

يقول أثناسيوس إن آدم جلب الموت لنا جميعاً، وهو التعليم الرسولي الذي يُعتبر أهم ما كتبه القديس بولس في (رو ص ٥)، وهكذا يقدم لنا القديس أثناسيوس ذات التعليم الرسولي معطياً تعبيراً آخراً مبنياً على كلمات الرسول بولس:

"إن كان بإنسان واحد قد ساد الموت على البشر، لهذا السبب أيضاً بطُل الموت، وتمت قيامة الحياة بتأنُّس كلمة الله" (١٠: ٥).

فكيف جاء تأنُّس كلمة الله بقيامة الحياة؟ وبالطبع، المقصود بقيامة الحياة هي حياتنا نحن. "لقد مات الرب، ولكنه حوَّل "الفاسد إلى عدم فساد" (٢٠: ١)، وأيضاً "لم يكن ممكناً أن يُلبس المائت عدم الموت إلَّا ربنا يسوع المسيح الذي هو الحياة" (٢٠: ١). وهكذا جاء المسيح واحتفظ "بخواص الجسد الإنساني" (٢١: ٧)، ولكنه؛ لأنه الحياة فقد حول هذه الخواص فيه إلى الحياة الجديدة العديمة الفساد.

وعندما تقول الكنيسة في أوشية الإنجيل "لأنك أنت هو حياتنا كلنا"، فإن

التعبير ذاته نراه في تجسد الكلمة "ربنا ومخلصنا يسوع المسيح حياة الجميع" (٢٤: ٣). وبقاء المسيح بعد أن أكمل عمله، بالشكل والطبيعة الإنسانية الممجدة بعد القيامة، هو تأكيدٌ على أن المسيح يمارس كهنوته، وهو حسب تعبير القديس أثناسيوس "أعمال القيامة" (٣١: ٤).

فما هي أعمال القيامة؟ والجواب هو "سر الإفخارستيا".

الإفخارستيا وثمار القيامة:

إذا كان ناسوت الرب قد تحول من الفساد إلى عدم الفساد، ومن الموت إلى عدم الموت، فإن هذا التغيير يُنقل إلينا بالشركة في المسيح. هذه الشركة لها اسم هام جداً في خلاصنا الأبدي وهو "الشركة في الطبيعة الإلهية"، وهذا ما يشرحه الرسول بطرس نفسه، مؤكداً لنا مواعيد الله العظمى في المسيح، لأننا –حسب كلمات رسول المسيح– نلنا هذا الامتياز:

أولاً: بالقدرة الإلهية "كما أن قدرته الإلهية قد وَهبت لنا كل ما هو للحياة" (٢ بطرس ١: ٣).

ثانياً: هي هبة حياة من الله حسب الكلمات السابقة.

ثالثاً: هي دعوة "بمعرفة الذي دعانا"، فهي ليست دعوة عمياء تتحد فيها طبائع، اتحاداً بلا إرادة وبلا محبة.

رابعاً: دعوة "بالمجد والفضيلة"، وهي أساس المواعيد العظمى والثمينة، أي عدم الفساد والقيامة من الأموات، أي عدم الموت، والتبني. هذه هي المواعيد، التي تجعلنا "شركاء الطبيعة الإلهية هاربين من الفساد في العالم" (٢ بطرس ١: ٤).

خامساً: إنها ليست شركة بلا ثمر في الحياة، بل هي كما يقول الرسول نفسه:

"ولهذا عينه (أي بسبب الشركة في الطبيعة الإلهية)، وانتم باذلون كل اجتهاد قدِّموا في إيمانكم فضيلة، وفي الفضيلة معرفة" وكل هذا ينتهي عند جوهر الإنجيل "المحبة" (١ بطرس ٣: ٧).

سادساً: إنها أساس الجهاد الروحي الصحيح، وهو أن نشترك في المسيح وننال من طبعه الإلهي المتجسد الذي مُنح لنا بالروح القدس حسب قول الرسول: "لأن هذه إذا كانت فيكم وكثرت تصيركم لا متكاسلين ولا غير مثمرين لمعرفة ربنا يسوع المسيح" (٢ بط ١: ٨)؛ لأن الطبيعة الإنسانية التي أخذها من والدة الإله "قد مُجِّدت بكل أمجاد اللاهوت" حسب تعبير القديس كيرلس السكندري، وصار آدم الثاني قادراً بقوة الإلوهة أن يوحِّدنا بكيانه الإلهي المتجسد، وهي القوة والحياة التي تعمل بواسطة جسده لأنه هو الرأس الذي "منه تنمو كل الأعضاء نمواً من الله" (كولو ٢: ١٩)، ونمو العضو من الرأس هو ما نعرفه من "علم الأجنة"؛ لأن الرأس هو أول ما يتكون من الجنين. وهكذا تنمو الكنيسة من رأسها يسوع المسيح "من الله"، من الروح القدس الساكن إلى الأبد في الكنيسة حسب وعد ربنا نفسه "يمكث معكم إلى الأبد" (يو ١٤: ١٦)؛ لأن تجسد ابن الله نقل سكنى الله من هيكل سليمان إلى البشر وكان ذلك بوعدٍ نبوي "لكن العلي لا يسكن في هياكل مصنوعات الأيادي -كما يقول النبي- السماء كرسي لي والأرض موطئ قدمي، أي بيت تبنون لي يقول الرب، وأين هو مكان راحتي أليست يدي صنعت هذه الأشياء كلها" (أع ٧: ٤٨)، ولذلك قتل اليهود اسطفانوس قائل هذه الشهادة النبوية لكي يكررها بعد ذلك الشاهد على قتله شاول الطرسوسي: "أم لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم الذي لكم من الله وأنكم لستم لأنفسكم" (١ كور ٦: ١٩).

أخيراً: تحذير من الرسول نفسه: "لأن الذي ليس عنده هذه (الشركة والمواعيد العظمى، أي الذي لم يشترك في طبيعة المسيح)، هو أعمى قصير البصر قد نسى تطهير خطاياه السالفة" (١ بطرس ٣: ٩)، وكيف يمكن تطهير الخطايا إلَّا بالحياة التي لا تموت والتي تُطهرنا من لعنة الموت؟ وما هي هذه الحياة إلَّا الحياة الإلهية نفسها التي أخذناها في

المسيح؟ ولذلك يطلب الرسول أن تكون دعوتنا ثابتة في الشركة في الطبيعة الإلهية: "لأنه هكذا يقدَّم لكم بسعة دخولٌ إلى ملكوت ربنا ومخلصنا يسوع المسيح الأبدي" (٢ بطرس ٣: ١١)، وكيف ننال هذا الملكوت والحياة الأبدية ونحن نتوقف عند الطبيعة المائتة التي ماتت في آدم الأول ولم تصل إلى الحياة غير المائتة في المسيح يسوع ربنا؟

ماذا ننال في الإفخارستيا؟

أولاً: ننال الابن الوحيد المتجسد الذي تألَّه ناسوته بسبب الاتحاد الأقنومي:

يقول القديس أثناسيوس:

> "لم يكن المسيح إنساناً ثم صار فيما بعد إلهاً، بل كان إلهاً، وفيما بعد صار إنساناً لكي يؤلِّهنا" (ضد الأريوسيين المقالة الأولى: ٣٩).

وبعد هذه السطور بقليل، يقول عن المؤمنين:

> "فإن كان كل الذين دُعوا أبناء وآلهة سواء على الأرض أم في السموات قد نالوا التبني وصاروا متألِّهين من خلال اللوغوس .. فمن الجلي أن الجميع قد صاروا أبناء من خلاله، وكان هو قبل الجميع .. وبالحري فقد كان هو الابن الحقيقي وحده.." (المرجع السابق).

ف "التبني"، يساوي بالضبط كلمة "الشركة في طبيعة الابن" الذي هو ابن الآب بالجوهر ونحن أبناء للآب بالنعمة، وهذا ما يجعل أثناسيوس نفسه يقول صراحة إن رفض التبني هو رفضٌ للمسيح، وهو رفضٌ خطيرٌ يصوغه معلمنا الكبير في هذه الكلمات:

> "كما أن البشر الذين حصلوا على روح الابن صاروا به أولاداً، هكذا كلمة الله عندما لبس هو أيضاً جسد البشر، يقال عنه إنه خُلِقَ وصُنِعَ. إذن فلو كنا نحن أبناء بالطبيعة يكون هو أيضاً مخلوقاً ومصنوعاً بالطبيعة. ولكن

أن كنا نحن أبناء بالتبني وبالنعمة فمن الواضح أن الكلمة عندما صار إنساناً لكي يعطي النعمة لنا قال الرب خلقني" (ضد الأريوسيين مقالة ٢: ٦١).

ثانياً: تحرير الطبيعة الإنسانية لكي تصبح الطبيعة المفتداة:

لقد قدَّس الابن ناسوته وخلَّصه من الفساد ومن الموت، وحرره تماماً من كل الضعفات البشرية ونقله من جسد قابل للموت إلى جسد عديم الموت، وكل هذا كما يقول القديس أثناسيوس:

"فإن جسده كان هو أول (جسد)، ثم تخليصه وتحريره، إذ أن هذا الجسد هو جسد الكلمة نفسه، وهكذا نحن عندما نتحد بجسده نخلص على مثال جسده" (المرجع السابق).

لقد أبطل الربُ الموت، ثم قام وكما قام جسده، "هكذا نحن أيضاً نقوم من الأموات فيه وبه" (المرجع السابق). نحن لا نقوم لأن لدينا قدرة على القيامة، بل نقوم لأننا فيه نأخذ القيامة وبه نقوم من الموت.

وهكذا يجيء إلينا كلمة الله الذي تنازل "بحب الآب للبشر" (المقالة الثانية: ٦٤)، لكي يفدي الخليقة ويعطي لها التبني (المرجع السابق)، وبه كما يقول أثناسيوس: "لكي إذ نتبعه ندخل بواسطته" (المرجع السابق). هذا التحول في الكيان الإنساني يقول عنه معلمنا أثناسيوس إنه كان "الطريق الأول" الذي كان يخص آدم الأول، ولكنه "تاه أو ضاع" وانحرفنا إلى الموت، وسمعنا القول: "إنك تراب وإلى التراب تعود" (تك ٣: ١٩)، "لذا فإن كلمة الله المحب للبشر لبس الجسد المخلوق بمشيئة الآب لكي يحيي بدم نفسه هذا الجسد الذي أماته الإنسان الأول بسبب تعديه" (المرجع السابق). ولما ضاع طريق الخليقة، جاء آدم الثاني الجديد بالطريق، فصار هو "الطريق"، أي طريق الحياة.

لقد صار الإنسان الأول سبب نقص الخليقة، وفي ذلك يقول أثناسيوس:

"الإنسان الأول الذي خُلق كاملاً (صورة الله)، صار ناقصاً بسبب المخالفة، وصار ميتاً بالخطيئة .. لأجل ذلك فإن كلمة الله الكامل قد لبس الجسد الناقص لكي بعد أن يوفي الدين بدلاً منا يكمل بنفسه ما هو ناقص عند الإنسان. فالإنسان ينقصه الخلود" (المقالة الثانية: ٦٦).

ثالثاً: الاتحاد بالله هو غاية التجسد والموت والقيامة:

ما هو الهدف الذي لأجله تجسد الرب؟ يقول أثناسيوس:

"إن كلمة الآب الذاتي لَبِس الجسد وصار إنساناً"

أمَّا لو كان الابن مخلوقاً:

"فإن الإنسان يبقى كما كان دون أن يتحد بالله؛ لأنه كيف يمكن أن يتحد بالخالق بواسطة مخلوق" (المقالة الثانية ٦٧).

جسد المسيح المتألِّه، والإفخارستيا، والكنيسة جسد المسيح

– هل تأكل الكنيسة نفسها عندما نتناول جسد المسيح، ونحن جسد المسيح؟

– ما هي العلاقة بين الإفخارستيا والكنيسة؟

أثناء إعداد هذه الدراسة صدرت دراسة جيدة هي أصلاً رسالة دكتوراه عن أهم لاهوتيين في العصر الحديث:

١– الأب الكاثوليكي *Henri de Lubac* وهو أحد أعلام اللاهوت في

فرنسا ويُعد من أهم علماء الآباء.

٢- الأسقف الأرثوذكسي *John Zizioulas*

والدراسة بعنوان: *The Eucharist Makes The Church*

الناشر *Tand T Clark* أدنبرة، اسكتلندة.

وصاحب رسالة الدكتوراه قس كاثوليكي هو الأب *Paul Mc Partland*

والمقارنة بين هذين اللاهوتيين هي في غاية الأهمية؛ لأنها تؤكد اشتراك الكنيستين في تراث ولاهوت واحد هو لاهوت الآباء.

وقبل هذه الدراسة بعدة أعوام كان الأب الكاثوليكي *E. Mersch* والأستاذ السابق في جامعة السربون، واحد أعلام الكنيسة الكاثوليكية قد نشر دراسة مطولة صدرت بالفرنسية أولاً عام ١٩٣٦ بعنوان جسد المسيح السري *Le Corps Mystique du Christ* ثم نشرت بعد ذلك باللغة الانجليزية الطبعة الأولى عام ١٩٥٦ والثانية ١٩٦٢ بعنوان *The Whole Christ* كما نُشرت عدة مقالات في المجلات العلمية العالمية يضيق بها مجال هذه الدراسة، ويمكن مراجعتها في دراسة الأب *Paul Mc Partland*.

وعندما نطرح السؤال عن العلاقة بين الكنيسة والإفخارستيا، وجسد المسيح، فنحن لا نتكلم من فراغ، أو لمجرد رغبة شخصية تدفعنا للتصدي لفكرة شعبية يروجها بعض الإكليروس، أحياناً في سخرية وتهكم، بل نحن نتصدى لفكرةٍ خطيرةٍ تهدف في النهاية إلى فصل الكنيسة عن الإفخارستيا والإفخارستيا عن المسيح نفسه، لكي يصبح تعبير "جسد المسيح الواحد"، أي "الكنيسة" مجرد اسم لا يتضمن أي معنى أو حقيقة.

ما هي علاقة الإفخارستيا بالكنيسة؟

الجواب من واقع كلمات القداس الإلهي:

"اجعلنا مستحقين يا سيدنا أن نتناول من قدساتك طهارة لأنفسنا وأجسادنا وأرواحنا لكي نكون جسداً واحداً ونجد نصيباً وميراثاً مع جميع القديسين الذين أرضوك منذ البدء. أذكر يا رب سلامة كنيستك الواحدة .. الخ".

حقيقة الوجود الإنساني بعد تجسد الكلمة

ليس أمامنا إلَّا أحد اختيارين:

١– إمَّا أننا في آدم الأول وحده.

٢– وإمَّا أننا في آدم الثاني، يسوع المسيح.

والوجود حسب آدم الأول لا يحتاج إلى شرح وتعليق، فهو حقيقة نراها كل يوم في الشوارع وعلى صفحات الجرائد اليومية وكل وسائل الإعلام: قتل، زنى، إرهاب، حقد، كراهية، سخرية ..الخ.

الوجود حسب يسوع المسيح، وفي المسيح، وبالمسيح، هو ما نراه في التعليم الرسولي، وفي صلوات الكنيسة الجامعة. وهكذا إمَّا أننا في آدم الأول أي نحيا "حسب الجسد" ونسلك "حسب الجسد". وإمَّا أننا في آدم الثاني نحيا "حسب الروح ونسلك حسب الروح". والوجود "حسب الجسد" لا يحتاج إلى إيضاح كما قلنا؛ لأنه تعبير الرسول بولس الذي يؤكد أننا نحيا حسب الطبيعة الإنسانية الساقطة والمستعبدة لكل الخطايا حسب لائحة الخطايا في (غلا ٥: ١٩ – ٢١)، وهي الخطايا التي يقول عنها

الرسول: "إن الذين يفعلون مثل هذه الخطايا لا يرثون ملكوت الله" (غلا ٥: ٢١).

منطق الجسد أو قانون الحياة الطبيعية:

١– يقول الرسول بولس: "اهتمام الجسد هو موت" (رو ٨: ٦). ويقول الرسول يعقوب: "الجسد بدون الروح ميت" (يع ٢: ٢٦). فالجسد، أي الوجود الطبيعي مآله إلى الفناء وإلى الموت، والموت هو الانحلال والعجز والضعف، وهو لذلك –حسب منطق الجسد الذي يقاوم الموت بكل وسيلة لأنه لا يريد الموت– "نصنع تدبيراً للجسد" (رو ١٣: ١٤)، بالقتل دفاعاً عن النفس، والحسد والغيرة والخصام .. الخ.

٢– كان فخر اليهود هو الولادة من إبراهيم .. وحسب التعليم الرسولي كانوا جميعاً نسل إبراهيم حسب الجسد. ويأتي الإنجيل مؤكداً على أن "ليس أولاد الجسد هم أولاد الله بل أولاد الموعد" (رو ٩: ٨)، لأن الولادة لم تعد ولادة بقوة التكاثر الطبيعي أي ثمرة الزواج، بل الولادة من فوق من الله (يوحنا ١: ١٢ مع يوحنا ٣: ٦). فطبقاً لشريعة الحياة الجديدة، المولود من الجسد، هو جسد طبقاً لقول المخلص.

والنتيجة النهائية أو المحصلة:

هي أن منطق الجسد حسب كلمات الرسول: "فيكم حسد وخصام وانشقاق إذن أنتم جسديون، تسلكون حسب البشر" (١كو ٣: ٣). حسب البشر، أي حسب الحجم والوزن والشكل والانتماء العرقي. حسب البشر، أي حسب قانون الانتماء البيولوجي الذي يجد القوة في المال، والطعام والملابس .. اهتمامات الجسد، وهي ليست بالضرورة شريرة، ولكنها تؤدي إلى الموت؛ لأنها لا تحمل في داخلها قوة الروح القدس، روح الحياة.

منطق الروح أو قانون الحياة الروحية حسب روح الله:

١– "الجسد ميت" (رو ٨: ١١)، لا زال خاضعاً لقوة الفساد منتظراً القيامة، وهو تعبير الرسول: "متوقعين التبني فداء أجسادكم" (رو ٨: ١٣). ومع ذلك، فالجسد يجب أن يُفتدى ويصبح أعضاء المسيح (١ كور ٦: ١٥)، وذلك بأن يُقدَّم ذبيحة (رو ١٢: ١)، وهو حتماً يرفض الذبح؛ لأنه لا يقبل الموت، بل يُعطى نعمةً لكي يُصلب. فقد جاء الصليب بالقيامة، ولذلك الموت لا يؤدي إلى القبر، بل إلى السماء: "حاملين في الجسد كل حين إماتة يسوع (موت يسوع أي الصليب)، لكي تظهر حياة يسوع (قيامة يسوع)، أيضاً في جسدنا" (٢ كور ٤: ١٠).

٢– وبشارة الإنجيل هي أن يسوع رب الحياة جاء في الجسد (١ يوحنا ٤: ٢). ومَن يرفض هذه الحقيقة يرفض شريعة الحياة التي ظهرت وسُمِعَت ولُمست في الجسد، أي في الكلمة المتجسد (يوحنا ١: ١٤).

٣– لكن ما هو أهم وأعظم هو أن قوة الحياة الجديدة التي تعود إلى روح الحياة في يسوع المسيح أي الروح القدس قد سُكبت في قلب الإنسان (رو ٥: ٥)، وهي المحبة الإلهية، ولذلك الذين يسيرون حسب الروح، حسب الحياة (رو ٨: ٥)، يعرفون إن الله يسكن في كل المؤمنين من سكنى الروح القدس، لأن الذي ليس فيه سكنى الروح القدس لم يعرف المسيح (رو ٨: ٩).

والمحصلة النهائية:

١– هي أن روح الذي أقام يسوع من الأموات يعطي الحياة لنا، حتى للجسد الخاضع للموت (رو ٨: ١١).

٢– وليس هذا شريعة العبودية والخوف، بل شريعة التبني (رو ٨: ١٥ غلا ٤: ٤–٥).

ما الذي يفحصه روح الإنسان بالروح القدس؟ (١ كور ٢: ١٠):

١– أسرار الله التي تُعلن بالروح القدس، وليس بمنطق وقانون الحياة البيولوجية (١ كور ٢: ١٠)، وهي أسرارٌ لا يمكن أن تُدرك إلَّا بالروح القدس "أمور الله لا يعرفها أحد إلَّا بالروح القدس" (١ كور ٢: ١١).

٢– روح العالم له مقاييس ومنطق لا يخطئ عندما يفحص عن: الوزن – الطول – العرض – الحجم – الشكل – البقاء – التغذية – المسافة – الزمن .. الخ.

٣– لكن روح المسيح له مقاييس ومنطق لا يخطئ عندما يميز بين:

الموت والحياة – الله والعالم

الحسد والبذل – الأنانية والصليب

المحبة والبغضة – العطاء والقتل

يقول الرسول وهو بعيد وتفصله مسافة كبيرة عن كنيسة كورنثوس: "أنا غائب بالجسد ولكن حاضر بالروح" (١ كور ٥: ٣)، هذه عند الإنسان الطبيعي جهالة *Folly* (١ كور ٢: ١٤).

فكر المسيح وفكر العالم (١ كور ٢: ١٦):

١– كل إنسان هو فرد منفصل حسب العالم. وحسب المسيح كل إنسان هو عضو في جسد المسيح (١ كور ١٢: ١٢).

٢– كل فرد له الوزن والشكل والمال .. الخ. وحسب المسيح هو عضو نال مكانته بسبب موهبة الروح القدس حسب شرح الرسول الطويل جداً في ١ كور ص ١٢.

٣– حسب العالم، الانتماء هو انتماء طبيعي بالولادة وقرابة الدم والجسد .. الخ. وحسب المسيح "أنتم جسد المسيح وأعضاؤه أفراداً" (١ كور ١٢: ٢٧).

٤– حسب العالم كل فرد له قانونه الخاص وشريعة حياته. وحسب المسيح "إن كان عضوٌ يتألم فجميع الأعضاء تتألم معه. وان كان عضوٌ واحد يُكرم فجميع الأعضاء تفرح معه" (١ كور ١٢: ٢٦).

الجسد الواحد حسب فكر المسيح:

١– لا يُقاس المسيح حسب الجسد؛ لأن عدل أو بر الإيمان يأمر بالابتعاد عن المسافات والزمن وسائر المقاييس الجسدانية، وهذا ما يقوله رسول المسيح: "وأما البر الذي بالإيمان فيقول هكذا: لا تقل في قلبك من يصعد إلى السماء أي ليُحدر المسيح (يجعله يتجسد)، أو من يهبط إلى الهاوية أي ليصعد المسيح من بين الأموات (القيامة)، (رو ١٠: ٦)، ولكن ماذا يقول الإيمان؟ جواب كل سؤال في القلب، في المسيح الذي حسب مقاييس حياته:

* لا يطلب شيئاً لذاته – المحبة لا تطلب ما لنفسها (١ كور ١٣: ٥).

* لا يعطي بكيل أو ميزان – ليس بكيل يعطي الله الروح (يوحنا ٣: ٣٤).

* لا يفصله عنا كل مقاييس الحياة الحاضرة حسب قائمة الرسول الموت – الحياة – القوات السمائية – الحاضر – المستقبل – المسافات العلو – العمق – وسائر ما خلق الله، وهو حسب كلمات الرسول: "ولا خليقة أخرى" تقدر أن تفصلنا عن محبة الله التي في المسيح يسوع ربنا (رو ٨: ٣٨-٣٩).

فما هو نوع هذه الوحدة، أي وحدة الجسد؟

يقول الرب: "ليكون الجميع واحداً (حسب وحدة جوهر الثالوث)، كما أنك

أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا" ويؤكد الرب ذلك "ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد" (يوحنا ١٧: ٢٠ – ٢٢)، وعلى مثال الثالوث تكون الكنيسة، أو الجماعة واحد حسب المقياس الإلهي، وليس حسب أي اتحاد مهما كان نوعه. وحتى لا نقدِّم للقارئ فكرنا الخاص، نكتفي بما يقوله القديس كيرلس السكندري في شرحه للإصحاح السابع عشر من إنجيل يوحنا.

النص الأول:

"عندما أشرح هذه الكلمات لن أحذف الكلام عن جسد المسيح المقدس – حاشا لله. (لقد قال الرب قدِّسهم في حقك، كلامك هو حق)، وكان من اللائق أن ينسب مجد التقديس إلى مجد اللاهوت بواسطة الكلمة، ومع ذلك فإن جسد المسيح نفسه تقدَّس بواسطة قوة الكلمة (الابن)، وصار واحداً معه[١]، وصارت هذه القوة المحيية في الإفخارستيا المقدسة، حتى أن الإفخارستيا تزرع فينا نعمة التقديس، ولذلك أيضاً عندما تحدَّث مخلصنا مع اليهود وقال لهم أشياء كثيرة عن جسده، قال إن جسده هو "خبز الحياة" الحقيقي: "والخبز الذي أنا أعطيه هو جسدي الذي سيعطي الحياة للعالم" (يوحنا ٦: ٥١). وعندما أندهش اليهود وصاروا حيارى وسألوا: كيف يمكن للجسد الذي من طبيعة أرضية، أن يصبح وسيلة الحياة الأبدية؟ أجابهم الرب قائلاً: "الروح هو الذي يحيي والجسد لا يُفيد شيئاً. الكلام الذي أكلمكم به، هو روح وحياة" (يوحنا ٦: ٦٣)، وهنا قال إن الجسد لا يُفيد شيئاً أي بخصوص التقديس وردِّ الحياة للذين يأخذونه، أي أنه لو كان جسداً بشرياً مثل أجساد باقي البشر، ولكن إذا آمنا بأنه جسد وهيكل الكلمة، فإنه حقاً يصبح قناة أو وسيلة التقديس والحياة، ليس باستقلال أو وحده، بل من خلال اللاهوت، الذي صار واحداً معه، وهو قدوس وحياة" (الكتاب

---

(١) راجع عبارة الاعتراف الأخير في القداس "وجعله واحداً مع لاهوته".

الحادي عشر شرح يوحنا ١٧: ١٤ ص ٥٢٣ – ٥٢٤ من الترجمة الانجليزية).

فإذا كان الجسد يُحيي ويقدِّس في سر الإفخارستيا، والتقديس هنا هو عزل وإبادة قوة انقسامات الخطايا .. فما هي الوحدة التي يتحدث عنها الرب.

النص الثاني وقد قُسِّم إلى إحدى عشرة فقرة:

"كان المسيح هو باكورة ثمار الذين يُبنون[١]، إلى حياةٍ جديدةٍ، وكان المسيح هو أول إنسان سمائي. وعن هذا قال بولس: "آدم الثاني الرب من السماء" (١ كور ١٥: ٤٧). وأيضاً كتب يوحنا: "ليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء، ابن الإنسان" (يوحنا ٣: ١٣)، وبالشركة فيه تنال باقي الباكورة أي التلاميذ الذين كانوا أقرب الناس إليه واختارهم الرب ليكونوا تلاميذه، .. والكل معاً يصبحون مثله، ولكنه يظل متقدماً على الكل؛ لأنه هو الرأس، أي رأس الجسد الكنيسة، والعضو الأصلي الرئيسي الذي منه تُولد باقي الأعضاء (كو ١: ١٨)...

ومن غير المعقول أن نتصور أن حكم الموت الذي صدر على كل البشر من خلال واحد، وأنا أعني آدم الأول، حتى على الذين لم يخطئوا في ذلك الوقت، أي في الزمان الذي تعدى فيه مؤسِّس جنسنا الوصية التي أخذها، فهؤلاء لبسوا صورة الأرضي *Image* الوضيعة، وعندما يجيء المسيح بيننا –فمن غير المعقول– أنه وهو الإنسان الذي من السماء لا يتجدد الذين يؤمنون به والذين دعاهم ببره الإلهي لكي يسلكوا فيه، ويصبحوا صورته هو...

---

(١) راجع عبارة القداس في تقدمة الحمل "سلاماً وبنياناً لكنيسة الله" فالإفخارستيا تبني الكنيسة لأنها طعام الحياة الأبدية.

وكما نرى الصورة والمثال الأرضي القبيح في أشكال متنوعة وصور مختلفة تحمل نجاسة الخطية، وضعف الموت والفساد، ودنس الشهوات الجسدانية، والأفكار العالمية، هكذا نرى صورة السمائي –أي المسيح– تشرق بالنقاء والصفاء وكمال عدم الفساد والحياة، والتقديس. وكان من المستحيل علينا نحن الذين سقطنا بسبب الخطية الأولى أن نعود إلى المجد الفائق، إلَّا عندما ننال الشركة التي لا يُعبَّر عنها والاتحاد بالله التي حددها الله في البدء وخصصها للطبيعة الإنسانية. ولا يقدر أي إنسان أن يصل إلى الاتحاد بالله إلَّا بواسطة الشركة في الروح القدس الذي يزرع فينا قداسة أقنومه، ويجدد مرةً ثانيةً من خلال الشركة في حياته الطبيعة التي خضعت للفساد، ويعيدنا مرة ثانية لله وإلى مثاله، نحن الذين فقدنا مجد هذا المثال. وكما أن الابن هو صورة جوهر الآب، فروحه هو المثال الحقيقي والطبيعي للابن، ومن أجل هذه الغاية عينها يجددنا نحن، أي نفوس البشر، ويختم الكل بختم "مثال الله" و "صورة" العلي.

يصلي ربنا يسوع المسيح ليس فقط من أجل الاثنى عشر رسولاً، بل من أجل كل الذين يقبلون ويطيعون الكلام، لكي ينال الكل التقديس بالإيمان، والتطهير الذي يتم فيهم من خلال الشركة في الروح.

ولم يُرِد الربُّ أن يتركنا في شكٍّ حول غاية صلاته، بل أراد أن يعلمنا ما هي نوع الحياة التي نحياها وطريق البر الذي يجب أن نسير فيه، والأمور المرضية المقبولة عنده. ما هي غاية صلاته؟ يقول الرب: "ليكونوا واحداً، كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك، ليكونوا واحداً فينا". يصلي الرب ويطلب رباط المحبة والاتفاق والسلام، لكي يتحقق الاتحاد الروحي للذين يؤمنون، وحتى تصبح وحدتهم مشابهة لوحدة الطبيعة، أي وحدة الجوهر التي للآب والابن، وذلك باتفاق النفوس، والمحبة الكاملة. ولكن رباط المحبة الذي بيننا وفينا، وقوة الاتفاق، لا تستطيع أن تجعلنا وتحفظنا مثل الوحدة غير المتغيرة

بين الآب والابن، لأن اتحاد الثالوث هو وحدة جوهر ومساواة أقانيم. فالجوهر الواحد هو فعلاً واحد، وهذا ما نقصده بوحدانية الله. أمَّا وحدتنا نحن، فهي مثال لشكل الوحدة الحقيقية. وكيف يستطيع المثال أن يصبح مثل الحقيقة نفسها؟ لأن شبه ومثال الحق ليس مثل الحق نفسه، بل يظهر في ذات الشكل، ولا يختلف عنه طالما لا توجد فرصة للاختلاف.

اعتراض الهراطقة من الأريوسيين:

إذا تصور واحدٌ من الهراطقة أنه يستطيع أن يهاجم الوحدة الطبيعية والمساواة بين الآب والابن، وأنه يستطيع إثبات فكرته الجنونية بمقارنة وحدتنا كبشر بوحدة الآب والابن وقال: "كما أننا نحن البشر لسنا واحداً لأن شكلنا الجسداني يختلف من إنسان لآخر، وأقصى ما يمكن أن نصل إليه هو اتفاق نفوسنا في المعاملات وفي محبة الله، وهو ما يوحدنا باتفاق الإرادة والتعاطف معاً لكي نعمل إرادة الله، هكذا الابن هو واحد مع الآب". نحن نرفض هذا التفسير رفضاً تاماً لأنه مملوء بالجهل والحماقة. وهذه هي الأسباب:

١- ما هو فوق الطبيعة أي الفائق لا يتبع المثال، أي أن الله لا يُشبَّه بنا.

٢- ولا يمكن لمن ليس له جسد أن يخضع للقوانين التي تخضع لها الأجساد، ولا يشبه اللاهوت الناسوت.

٣- نحن البشر نختلف عن الله، ولذلك لا نقدر أن نصبح مثالاً لله.

٤- وحيث أننا لا نشبه ما هو أعظم من الطبيعة الإنسانية، وهي الطبيعة الإلهية غير المدركة، فإننا لا نقدر أن نجعل طبيعتنا مقياس لصفات وخواص الله. كيف يجوز هذا؟ لأن طبيعة الله لا يحدها قانون مثل طبيعتنا الضعيفة.

معنى كلمات المسيح:

يقدِّم لنا المسيح الطبيعة الفائقة الواحدة التي هي طبيعته وطبيعة الآب، لتصبح مثالاً ونموذج للشركة التي لا يوجد فيها انفصال بل تحيا في الاتفاق التام بين النفوس الملتهبة. ويريد الرب أن نكون مثل وحدته مع الآب "أن نتحد معاً في قوة الثالوث القدوس المساوي، حتى يصبح جسد الكنيسة كلها، واحداً، ويرتفع إلى فوق في المسيح بواسطة اتحاد الشعبين في شعب واحد. يقول بولس: "لأنه هو سلامنا الذي جعل الاثنين واحداً ونقض حائط السياج المتوسط، أي العداوة مبطلاً في جسده ناموس الوصايا في فرائض لكي يخلق الاثنين في نفسه إنساناً واحداً جديداً صانعاً سلاماً ويصالح الاثنين في جسد واحد مع الله بالصليب قاتلاً العداوة به" (أف ٢: ١٤ – ١٦)، هذا تحقق بالفعل، فالذين آمنوا بالمسيح صاروا نفساً واحدة واتحد الكل بالآخر، ونالوا قلباً واحداً بواسطة التشبُّه بالله وبطاعة الإيمان وإلهام الفضائل.

وما قلته ليس بعيداً عن طريق الصواب، بل هو ضروري ومطلوب، ولكن معنى الكلمات يفرض علينا أن لا نترك هذا الموضوع دون بحث، لأن كلمات مخلصنا تدعونا إلى بحث معنى: "كما أنك أيها الآب فيَّ، وأنا فيك، ليكونوا واحداً فينا"، وما ذكرناه سابقاً يؤكد وحدة المؤمنين باتفاق القلب والنفس، وهو ما يشبه وحدة جوهر الثالوث المتساوي.

مثالٌ آخر أعظم للوحدة بين المؤمنين:

هنا يجب أن أشير إلى وحدة طبيعية تجعل الكل يتحد بغيره، والكل يتحد بالله، دون أن يُسقط هذا الاتحاد، الوحدة الجسدية، رغم اختلافنا في الأجساد وتنوع شخصيتنا. فبطرس لا يمكن أن يصبح بولس، ولا يجوز أن نقول إنه بولس لأنه في الحقيقة بطرس. ونفس الكلام ينطبق على بولس،

رغم أنهما فعلاً واحداً بسبب اتحادهما بالمسيح فإذا أخذنا وحدة الطبيعة، أي وحدة الجوهر بين الآب والابن والروح القدس –لأننا نؤمن بجوهر واحد ممجد للثالوث القدوس– فإن هذه الوحدة تدعونا إلى أن نسأل: كيف نحن واحد مع بعضنا ومع الله؟ وما هو المعنى الحسي والمعنى الروحي لكلمات الرب؟

أولاً: الابن الوحيد مولود من ذات جوهر الله الآب، وله ذات الطبيعة التي للآب الذي يلده، تجسد وتأنس واتحد بالطبع الذي يخصنا بأسلوبٍ ووحدةٍ لا تُدرَك ولا يمكن التعبير عنها عندما اتحد بالجسد الترابي، فصار الإله الحق بالطبيعة، الذي حقاً تجسد وصار الإنسان السمائي .. وبذلك وحَّد في أقنومه الطبائع المختلفة وجعلها واحداً دون اختلاط لكي يجعل البشر قادرين على الشركة ونوال الطبيعة الإلهية. وهكذا صار إلينا حضور وسكنى الروح الذي ابتدأ بالمسيح ومنه نبع؛ لأن المسيح هو الأول، وهو الذي صار مثلنا إنساناً ونال المسحة والتقديس، رغم كونه بالطبيعة الله المولود من الآب نفسه، فقدَّس بروحه القدوس هيكل جسده، وقدَّس بذلك الخليقة (الجديدة)، التي نالت منه وجودها. وصار سر المسيح هو بدايةً وطريقاً لكي ننال نحن الروح القدس والاتحاد بالله، لأننا فيه جميعاً نتقدس كما ذكرت سابقاً.

ثانياً: ولكي نتحد نحن كلٌ بالآخر وبالله رغم وجود الاختلافات والفروق التي تظهر بيننا، لأن كل فرد منا له نفس وجسد مميَّز، لكن الابن الوحيد أسَّس وسيلةً حسب تدبير حكمته ومشورة الآب. فهو بجسدٍ واحدٍ، أي جسده، يبارِك بسر الإفخارستيا الذين يؤمنون به، ويجعلنا جميعاً من ذات الجسد واحداً معه ومع بعضنا البعض.

ثالثاً: ومن يستطيع أن يفصل أو يشق من هذه الوحدة الطبيعية الذين قد اتحدوا ***Knit together*** معاً بواسطة جسده المقدس، الذي هو واحدٌ

معه المسيح في وحدة. فالرسول يقول: "لأننا نشترك في الخبز الواحد" (١ كور ١٠: ١٧)، صرنا جسداً واحداً، لأن المسيح لا يمكن أن ينقسم.

رابعاً: وهكذا تصبح الكنيسة جسد المسيح، ونحن جميعاً كأفراد، أعضائه حسب حكمة بولس (١ كور ١٢: ٢٧)، لأننا اتحدنا جميعاً بالمسيح بواسطة جسده المقدس، عندما نتناوله ونتحد به في أجسادنا وهو الواحد الذي لا ينقسم، وعند ذلك تصبح خدمتنا معاً منه هو وليست خدمة لنا نحن لأنها خدمته هو.

خامساً: هذا يجعل المسيح الرأس، والكنيسة جسده، والمؤمنين المسيحيين أعضاء هذا الجسد. ويبرهن بولس على ذلك بهذه الكلمات: "لكي لا تكونوا فيما بعد أطفالاً مضطربين ومحمولين لكل ريح تعليم بحيلة الناس بمكر إلى مكيدة الضلال. بل صادقين في المحبة ننمو في كل شيء إلى ذاك الذي هو الرأس أي المسيح، الذي منه كل الجسد مركباً معاً ومقترناً بمؤازرة كل مفصل حسب عمل قياس كل جزء يحصل نمو الجسد لبنيانه في المحبة" (أف ٤: ١٤ – ١٦).

سادساً: وكل الذين يشتركون في جسده المقدس ينالون هذه الوحدة الجسدانية –وأنا أعني– مع المسيح. ويشهد بولس بذلك مرة ثانية عندما يقول عن سر التقوى: "الذي في أجيال سابقة لم يُعرَّف به بنو البشر كما قد أعلن الآن لرسله القديسين وأنبيائه بالروح، أن الأمم شركاء في الميراث والجسد ونوال موعده في المسيح" (أف ٣: ٥ – ٦).

سابعاً: ونحن جميعاً من نفس الجسد متَّحدين معاً في المسيح، ليس فقط مع بعضنا البعض بل به هو، الذي فينا (المسيح)، بواسطة جسده المقدس. ألا يوضح هذا أننا صرنا واحداً مع المسيح ومع بعضنا البعض؟ لأن المسيح هو رباط الوحدة، فهو إله وإنسان معاً في وحدة واحدة.

ثامناً: أمَّا بخصوص وحدتنا معاً التي من الروح، فإننا إذا اتبعنا نفس الطريق الذي سلكناه عندما بحثنا هذا الأمر، نقول إننا ننال نفس الروح، أي الروح القدس، ونتحد معاً كل بالآخر وبالله.

تاسعاً: ومع أننا كثيرون، إلَّا أن المسيح الذي هو روح الآب والروح القدس، يسكن في كل واحد منا على حدة، ومع ذلك يظل الروح القدس واحداً لا ينقسم، بل يجمعنا معاً نحن الأرواح المتفرقة والمتمايزة والتي لكل فرد منا كيانه الخاص، لكي نتحد معاً في وحدة تحفظ كيان كل منا على حدة، ومع ذلك تظهر ليس كأفراد منفصلة بل تُعلن به وفيه كواحد.

عاشراً: وكما أن قوة جسده المقدس تجعل الذين ينالون الجسد من ذات الجسد، هكذا أيضاً الروح غير المنقسم، روح الله الساكن في كل منا، الروح الواحد يربطنا معاً برباط الوحدة الروحية. ولذلك يقول بولس الملهم بالروح وهو هنا يخاطبنا: "محتملين بعضكم بعضاً بالمحبة. مجتهدين أن تحفظوا وحدانية الروح برباط السلام، لأنه يوجد جسد واحد، وروح واحد، كما دعيتم أيضاً في رجاء دعوتكم الواحد. ربٌّ واحد، إيمان واحد، معمودية واحدة، اله وآب واحد للكل الذي على الكل وبالكل.." (أف ٤: ٢ – ٦)، وعندما يسكن فينا الروح الواحد، فإن الإله الواحد آب الكل يكون فينا ويربطنا معاً بوحدة معه ومع بعضنا ومع كل الذين نالوا الروح[١].

حادي عشر: ونحن نصبح واحداً مع الروح القدس بالاشتراك فيه، وهو ما سوف نوضحه الآن. وعندما نتخلى عن الحياة حسب الطبيعة، ونسلِّم ذواتنا

---

(١) راجع صلاة الخضوع التي تبدأ "كملت نعم إحسان ابنك الوحيد" حيث تعكس الصلاة ذات لاهوت القديس كيرلس السكندري إذ تقول "نسأل .. يا محب البشر لكي إذ طهرتنا كلنا تؤلفنا بك من جهة تناولنا من أسرارك الإلهية. لكي نكون مملوئين من روحك القدوس" فالتناول يملأ المتناول من الروح القدس حسب صلاتنا وشرح القديس كيرلس. ووحدتنا مع الذين نالوا الروح القدس هي أحد أركان شفاعة القديسين، وسبب وجود صلاة المجمع وصلاة الترحيم.

تماماً لشرائع الروح القدس، فلا يوجد مكان بالمرة لإنكار أننا عندما نجحد ذواتنا أي حياتنا ونأخذ الحياة الجديدة السامية على مثال حياة الروح القدس الذي هو فينا، فإننا نتحول إلى طبيعة أخرى، أي لا نصبح بعد بشراً، بل أبناء الله، وبشراً سمائيين، لأننا نصبح شركاء الطبيعة الإلهية. ونحن جميعاً نصبح واحداً في الآب والابن والروح القدس. واحد -أنا أعني- المساواة في الحياة العقلية (وأنا أرجو أن لا ننسى ما سبق وقلته)، وأيضاً في الثبات في حياة التقوى، وبشركة جسد المسيح المقدس، وبشركة الروح القدس الواحد، كما قلت الآن".

أعتذر للقارئ عن هذا النص الطويل الذي يختصر كل لاهوت الآباء الخاص بالكنيسة والإفخارستيا والذي يشغل صفحات ٥٤٤ – ٥٥٢ من الكتاب الحادي عشر لتفسير إنجيل يوحنا للقديس كيرلس والذي قُسِّم إلى إحدى عشرة فقرة لكي يشعر القارئ بانتقال أبينا القديس كيرلس من نقطة إلى أخرى.

تُرى هل يحتاج هذا الكلام إلى تعليق؟

الجواب لا، ولكن يجب أن نراجع معاً أهم المبادئ اللاهوتية حتى لا يتوه القارئ غير المدرب.

بنيان جسد الرب، أي الكنيسة:

من الكلمات الهامة في العهد الجديد "البنيان" و "الكمال" وفعل يبني هو ذات الفعل الخاص ببناء البيوت. ويقول سفر الجامعة "للهدم وقت وللبناء وقت" (٣: ٣)، ولما هدم الهيكل في السبي الأول كانت صرخة الأنبياء وصلاة المسبيين هي "بناء بيت الرب" (حجي ١: ٢).

هيكل العهد الجديد:

يقول الرسول: "أنتم فلاحة الله بناء الله" (١ كور ٣: ٩)، وهكذا بنى الرسول بولس على الأساس "الذي هو يسوع المسيح" (١ كور ٣: ١١)، ولكن فوق هذا الأساس الأبدي حسب كلمات الرسول يوجد: ذهب، فضة، حجارة كريمة، خشب، عشب، قش (١ كور ٣: ١٢). ويكرر الرسول نفس التعليم وهو يبشر الأمم بوحدة الشعب مع الشعوب (اليهود والأمم): "لستم بعد غرباء ونزلاء بل رعية مع القديسين وأهل بيت الله". ويقدم الأساس لهذا التعليم: "مبنيين على أساس الرسل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية الذي فيه كل البناء مركب معاً ينمو هيكلاً مقدساً في الرب"، ويؤكد حقيقة الحياة المسيحية لكنيسة أفسس: "الذي فيه انتم أيضاً مبنيين معاً مسكناً لله في الروح" (أف ٢: ١٩ – ٢٢).

هيكل العهد الجديد يُبنى بالتعليم والوعظ، لأنه هيكل روحي. وهكذا يقول الرسول عن موهبة النبوة وهي هنا هي موهبة التعليم، وهي أحد عطايا الروح القدس الأساسية: "مَن يتنبأ فيكلم الناس ببنيان ووعظ"، ويؤكد أن هذه العطية "تبني الكنيسة" (١ كور ١٤: ٣ – ٤)، ويرى الرسول خطورة الانقسام الذي يهدد وحدة الكنيسة ويحذِّر كنيسة كورنثوس: "هكذا أنتم أيضاً إذ أنكم غيورون للمواهب الروحية اطلبوا لأجل بنيان الكنيسة أن تزدادوا" (١ كور ١٤: ١٢). والمقياس الرسولي لصحة موهبةٍ ما، وصحة عمل هذه الموهبة، أي قاعدة الإفراز الخاصة بالجماعة، هو "متى اجتمعتم فكل واحد منكم له مزمور، له تعليم، له لسان، له إعلان، له ترجمة" هذا هو تنوع عطايا الروح القدس"، ولكن "فليكن كل شيء للبنيان" (١ كور ١٤: ٢٦).

ويعود الرسول إلى ذات القاعدة الخاصة بالإفراز وتمييز سلطان المواهب وعطايا الله مؤكداً أن الكنيسة التي تقبل قيادة إنسان؛ لأنه كما نقول "شخصية" وهو ذات التعبير الذي ورد حسب الترجمة العربية القديمة: "أتنظرون إلى ما هو حسب الحضرة"، أي فاعلية وقدرات القائد (٢ كور ١٠: ٧)، .. وكيف نميز الحضرة والشخصية والقيادة ..

الخ؟ يقول الرسول: "إن وثق أحد بنفسه أنه للمسيح (فليراجع نفسه أي لا يفرط في الثقة)، أو حسب الترجمة العربية "فليحسب هذا أيضاً من نفسه أنه كما هو للمسيح كذلك (الرسل)، نحن أيضاً للمسيح (٢ كور ١٠: ٧)، ولكن يبقى المقياس الرسولي وهو قاعدة الإفراز "فإني (بولس)، وإن افتخرت شيئاً أكثر بسلطاننا الذي أعطانا إياه الرب (سلطان الرب)، لبنيانكم لا لهدمكم" (٢ كور ١٠: ٨).

البنيان والهدم يسيران معاً في الكنيسة، الله يبني هيكل جسد ابنه الوحيد، بالمواهب وعطايا الروح القدس، وفي مقدمة هذه العطايا موهبة التعليم. والهدم يسير على مستويين. المستوى الأول هو التخريب والقتل الذي تحذِّرنا منه الدسقولية، وهو هدم الجماعة بالخطايا. والمستوى الثاني معروف لنا، وهو هدم وخلع العادات القديمة بقوة الروح القدس، أو حسب تعبير الرسول بولس "الإنسان القديم أو العتيق". وهكذا يحذِّر الرسول كنيسة كورنثوس من خطورة استعمال المواهب والعطايا، بل وسلطان الرب نفسه لأجل منفعة خاصة، ولأجل إبراز "الحضرة" أو "الشخصية" للهدم.

هدم الخطية لهيكل الله في العهد الجديد:

لعل أطول فقرة وردت في العهد الجديد كله عن هدم الكنيسة هي في الرسالة الأولى للقديس بطرس الإصحاح الثاني كله. ويبدأ هذا الإصحاح بتحذير غريب يُقال عن الكنيسة، يطلب فيه الرسول أن تطرح الكنيسة خطايا قذرة وصعبة، وهذه هي قائمة هذه الخطايا: خبث – مكر – رياء – حسد – مذمة (١ بط ٢: ١)، ثم قائمة أخرى: الشهوات الجسدية التي تحارب النفس، الحرية سترة للشر (١ بط ٢: ١١ – ١٦).

وهنا يقدم الرسول التعليم الخاص بالبناء:

١– الرب يسوع المسيح نفسه هو الحجر الحي "إن كنتم قد ذقتم أن الرب صالح، الذي تأتون إليه حجراً حياً مرفوضاً من الناس ولكن كريم (ثمين)، ومختار (حسب القصد الإلهي واختياره)، من الله (١ بط ١: ٣).

٢– المؤمنون هم أيضاً حجارةٌ حيةٌ من نفس جوهر الحجر الحي .. يشتركون في ذات الحياة المختارة من الله والكريمة "كونوا أنتم أيضاً مبنيين كحجارة حية بيتاً روحياً كهنوتاً مقدساً لتقديم ذبائح روحية (غير الذبائح الدموية للعهد القديم، وصيغة الجمع هنا تؤكد ذبح الحياة لكل فرد)، مقبولة عند الله (مثل ذبيحة الرب نفسه على الصليب ومثل الإفخارستيا)، بيسوع المسيح (١ بط ٢: ٥–٦).

فإذا كان المسيح هو: الأساس – حجر الزاوية – الحجر الحي، فإن بناء هذا الهيكل لا يتم بسهولة؛ لأنه "حجر صدمة وصخرة عثرة" (١ بط ٢: ٧). ومن العجيب حقاً أن يبني الله هذا البناء، ويبقي الأساس نفسه، هو نفسه سبب رفض الناس، ويصبح ما هو للحياة الحقيقية صدمةً وعثرةً. وتفسير هذا معروف عند الذين درسوا جيداً كلمات الرسول بولس عن الصليب ينبوع الحياة، وكيف تحول عند فلاسفة اليونان إلى "جهالة أو حماقة[١]"، وعند تلاميذ التوراة وشريعة موسى "عثرة"؛ لأن "اليهود يسألون آيةً" ويطلبون الخلاص بقوة مادية منظورة مثل قوة شمشون (١ كور ١: ٢٢). وعندما لا يخلِّص الله بقوة مادية ظاهرة، بل بموت ابنه، يصبح الصليب والمصلوب عليه، أي يسوع المسيح نفسه "عثرةً"، أمَّا الذين يطلبون الحياة، يصبح المسيح بالنسبة لهم "قوة الله وحكمة الله" (راجع ١ كور ١: ١٧ – ٢٥).

هدم الأساس الإلهي للكنيسة باسم الخطية

كان عصراً ساد فيه شرح الكثير على أرض وأساس واحد وهو الخطية. الخطية هي سبب وأصل وغاية كل شيء. هي سبب الخلاص، والخلاص هو خلاصٌ من العقاب، لا بنوال الحياة الأبدية وميراث الملكوت الأبدي. والغفران هو نوال "العفو" وليس التجديد والاستنارة. وأخيراً أصبحت الكنيسة جماعة بشرية خاطئة ليس لها أساس إلهي؛ لأن الخطية هي سبب تجسد الرب وليس محبته العظمى للبشر (أف ٢: ٤ – ٥).

---

(١) راجع دراستنا الخاصة بتاريخ الصليب في التراث القديم "الصلب والصليب حقيقة أم خرافة" القاهرة ١٩٩٧.

ومحو العقوبة هو سبب الصلب وليس هو الانتصار على الموت. والقيامة صارت موضوعاً مجهولاً إلَّا فيما ينشره "الدير المحروم" عن القيامة وعن أعياد الظهور الإلهي. وبقيت الكنيسة تعاني من طعنات توجَّه إليها من الداخل، فهي ليست جسد المسيح، وفي سخرية لم تسمعها الكنيسة الجامعة منذ العصر الرسولي: هل تسجد الكنيسة لنفسها عندما نقول في القداس: نسجد لجسدك المقدس"؟ وفي محاولة يائسة لفصل المسيح عن جسده الكنيسة جاءت "نظرية الأجساد الثلاثة"، وبقيت الكنيسة عارية. مؤسسة بشرية رأسها البطريرك، سادتها الأساقفة، ونمت السلطة وتحولت كل كنيسة إلى "مشروع استثماري"، رحلات ومعسكرات وأندية، وضاع البناء الإلهي من عقول وقلوب كثيرة لأنهم جميعاً يقفون على أرض واحدة هي الخطية، وهي بشر خطاة، وغاب أن "نهر التقديس" في القداسات لا يمحو الخطية فقط، بل يرد إلينا ما جرحته الخطية؛ لأن الخطية ليست أقوى من النعمة.

وعندما جاء الموت مع الخطية (رو ٥: ١٢)، جاءت النعمة مع المسيح وبالمسيح "والموت الذي دخل إلى العالم بحسد إبليس هدمته بالظهور المحيي الذي لأبنك الوحيد الجنس ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح"، فقد أعلنت الحياة وهي النور الذي يشرق في ظلمة الدهر، وهو القوة التي تعيد الكنيسة إلى الاتزان المعرض دائماً إلى الاهتزاز من الداخل بسبب الحياة التي يحياها الأعضاء، وبسبب الصراعات التى عاصرنا معظمها، ناهيك عما كان يدور وراء الأبواب المغلقة والتي كانت كلها تشير إلى حقبة مدمرة، وهي تحول الجماعة إلى حزب سياسي يمارس عمله بواسطة إعلام وأعوان وشق الوحدة الإلهية التي لأجلها مات يسوع لكي يرفع الموت قوة الهدم والانفصال.

الإفخارستيا: هبة حياة المسيح التي تبني جسده

إذا كان المسيح هو الحجر الحي، وخبز الحياة، وماء الحياة، وهو نفسه يقول: "أنا هو الحياة"، فإن تدفق الحياة من الرب هو تدفقٌ دائمٌ لا يتوقف ولا يحدث مرة واحدة، بل هو الحياة الدائمة حسب اعترافنا الأرثوذكسي: "لأنك أنت هو حياتنا كلنا"

(أوشية الإنجيل)، فكيف ننال هذه الحياة؟

حسب التسليم الرسولي نحن ننال هذه الحياة:

* بالكلمة، أي كلمة الله.
* بالروح القدس الرب المحيي.
* بجسد ودم المسيح الحي.

واشتراك الكلمة والروح والجسد والدم في صفة واحدة هي "الحياة"، يؤكد أن مصدر الكلمة والروح القدس والجسد والدم هو الحياة الإلهية نفسها[١]. وبسبب ضرورة إبراز دور الإفخارستيا سوف نترك الكلام عن الكلمة وعن الروح لمناسبة أخرى ونكتفي بالكلام عن الإفخارستيا.

جسد الحياة والمحيي[٢]:

لا أريد أن أعيد كتابة كلمات القديس كيرلس السكندري، ولكن أكتفي بما جاء في الرسالة رقم ٥٥ من رسائل القديس كيرلس، وفي هذه الفقرة بالذات نجد ملخصاً وافياً لما جاء في شرح الإصحاح السادس من إنجيل يوحنا[٣]. وسوف نقسم هذا الاقتباس إلى عدة فقرات من اجل الإيضاح.

---

(١) يجب الاعتراف بفضل مؤلفات الأب متى المسكين الذي كتب الكثير عن الكلمة ودور الكلمة في الخلاص.

(٢) راجع الفقرات السابقة لا سيما ٢، ١٠ وما سوف نقدمه من بعد ذلك.

(٣) نُشرت رسائل القديس كيرلس السكندري باللغة الانجليزية، ونشرها أيضاً مركز دراسات الآباء بالقاهرة ابتداء من سنة ١٩٩٥ وعلى القارئ مراجعة الترجمة الانجليزية في مجلد ٧٦ و ٧٧ من مجموعة آباء الكنيسة التي تصدرها الجامعة الكاثوليكية بواشنطن – الولايات المتحدة الأمريكية.

الفقرة الأولى:

ويؤكد فيها القديس كيرلس الاتحاد الأقنومي، وأهمية هذا الاتحاد؛ لأنه أساس سر المعمودية:

"يعلن بولس الملهم من الله مجد ربوبية (المسيح)، والاعتراف بالإيمان وقوة المعمودية المقدسة قائلاً: "لا تقل في قلبك مَن يُحدر المسيح .." (رو ١٠: ٦ – ٩)، ويكتب مرةً ثانية: "ألا تعلمون أنتم الذين اعتمدتم للمسيح قد اعتمدتم لموته" (رو ٦: ٣)، وها هنا يضع الرسول الاعتراف بالربوبية والإيمان معاً، لأن نعمة المعمودية المقدسة تعتمد على الذي تألَّم بالموت وقام من الأموات. وهكذا نحن لا نؤمن بابنين؟ هل نستطيع أن نتجاهل الكلمة المولود من الله الآب، وننسب ما قيل عنه لابن آخر غيره تألم، وآخر غيره له مجد الربوبية والاعتراف بالإيمان نفسه والمعمودية التي أخذها من فوق من السماء؟ هذه حماقة (أن نُقسم المسيح إلى اثنين)..

ولكن ما الذي يجب أن نقوله؟ ربٌّ واحدٌ، إيمانٌ واحدٌ، ومعموديةٌ واحدةٌ (أف ٤: ٥)، لأن المسيح هو ابن واحدٌ وربٌ واحدٌ، وليس لأن الكلمة اتخذ إنساناً وصادقه وحسب هذه المصادقة[١]، جعله (أي الإنسان الذي اتخذه الابن)، شريكاً في كرامتين (الكرامة الإلهية والكرامة الإنسانية)، وأعطى له البنوة والربوبية كما يقول ويكتب بعض الناس السكارى، ولكن لأنه هو كلمة الله، نورٌ من نور، تجسد وتأنس. ونحن لذلك السبب نعتمد لموته الذي عاناه في إنسانيته أي في جسده ولكنه هو ظل غير متألم في إلوهيته ويحيا إلى الأبد".

---

(١) الكلمة اليونانية Synaphia وتترجم عادة إلى Conjunction وهي هنا ليست مجرد صلة بل نوع من الصداقة.

الفقرة الثانية:

وفيها يؤكد القديس كيرلس على أن المسيح هو إلهٌ متجسد، وربٌ واحد، وحياةٌ إلهية متجسدة غلبت الموت.

"وهكذا غُلب الموت الذي تجاسر على الاعتداء على جسد الحياة، وهكذا أيضاً فَقَدَ الفساد قوته وأبيد، بل أن قوة الموت ضعفت"[١].

الفقرة الثالثة:

ويؤكد فيها القديس كيرلس على جسد الحياة وغالب الموت:

"ولذلك يقول المسيح: "الحق الحق أقول لكم أن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه، ليس لكم حياة فيكم" (يوحنا ٦: ٥٤)، وذلك لأن جسد المسيح المقدس ودمه هما واهبا الحياة، أو بالحري هو جسد من هو الحياة بالطبيعة أي جسد الابن الوحيد. وخورس الآباء القديسين أحباء المسيح يعترفون معنا بهذا التعليم" (رسالة ٥٥ فقرة ٣٦ – ٣٩ المجلد الثاني من الترجمة الانجليزية ص ٣٢ – ٣٣).

وفي الرسالة ٧٣ الفقرة الثالثة يوجِّه القديس كيرلس نقداً خطيراً لتعليم النسطورية ويضع في فقرة واحدة خطورة تعليم فصل اللاهوت عن الناسوت، ونتائج هذا الفصل وتأثيره على العبادة وعلى الإفخارستيا بشكل خاص:

"ويقول (نسطور)، أيضاً أن العبادة لا يجب أن تقدم لربنا يسوع المسيح كإله، وإنما بسبب علاقته (أو صداقته)، يجب أن ينال التكريم كصورة

---

(١) تؤكد هذه العبارات، ما نردده في قسمة الخماسين وغيرها من الصلوات والتسابيح الخاصة بالقيامة في كل الكنائس الشرقية الأرثوذكسية، لا سيما كنيستنا القبطية الأرثوذكسية "أبطل عز الموت".

الله. وحسب تعبيراتهم (النسطورية)، يقولون كمن هو شبه الإلوهية أو من وصل إلى رتبة الإلوهية".

والنتيجة:

"ويعلن (نسطور)، أن جسد الرب بلا فائدة بالمرة مشوّهاً معنى كلمات الرب" الجسد لا يفيد شيئاً (يوحنا ٦: ٦٤). (المرجع السابق ص ٧٦).

وفي رسالته رقم ٨٣ يؤكد القديس كيرلس على معنى الاتحاد الأقنومي، أي اتحاد ابن الله بالجسد، مشيراً إلى أن جسد من هو الحياة، يجعل ما يتبقى من أصغر جوهرة[١] له ذات الفاعلية. ويكتب عن ذلك إلى أسقف أرسينوي في جنوب مصر:

"ويقولون إن ما يتبقى من الأسرار بعد التقديس يفقد قوته وفاعليته إذا ظل ليوم آخر، والذين يقولون هذا هم مجانين؛ لأن المسيح لا يتغير، ولا يتبدل جسده المقدس، ولكن قوة التقديس والنعمة الواهبة الحياة هي دائمة في جسده" (رسالة ٨٣: ٦ ص ١١١ المرجع السابق).

وجسد الكلمة هو جسد الحياة، وهو ما يؤكده في التفسير الأنيق *Glaphyra* على أسفار موسى الخمسة عندما يشرح آلام الرب:

"نحن نعرف إن ابن الله هو واحد، ولا نفصل إلوهيته عن إنسانيته بسبب آلام ناسوته. ولا حتى بسبب أعماله الإلهية نفصل إلوهيته عن إنسانيته، بل هو الواحد الله الكامل والإنسان الكامل. هو ابن الله وابن الإنسان، بلا أُم بسبب أصله السماوي، وبلا أب على الأرض، وهو كإنسان جاع وتعب ونام، وكإله عمل المعجزات وأعطى الحياة للموتى. وحتى جسد

(١) جوهرة هو الاسم الشائع في الكتب الطقسية الأرثوذكسية، ونحن لا نقول عما تبقى من الأسرار أجزاء، لأن المسيح لا ينقسم.

ابن الله الذي أخذه من الطبيعة الإنسانية (القديسة مريم)، فنحن نؤمن بأنه واهب الحياة، لأنه اتحد بالله الحي حسب كلمات الرب نفسه في الإنجيل "إن لم تأكلوا جسدي وتشربوا دمي، ليس لكم حياة أبدية" (يوحنا ٦: ٥٣)، هذا ضد ما يقوله هؤلاء المجدِّفين بأن جسد ربنا بلا فائدة لأنه أُخِذَ من طبيعة إنسانية، وحسب هذا التعبير، فالسر المقدس لا يعطي الحياة.." (الرسالة ١٠١: ٧ – ٨ المرجع السابق ص ١٦٣).

الوحدة الروحية بسبب الإفخارستيا:

عندما صار جسد ربنا يسوع المسيح واحداً مع لاهوته، وصار خبز الحياة الذي يعطي الحياة للعالم، صار جسده "قناةً" أو "وسيلة التقديس". وحسب تعبير القديس كيرلس "ليس باستقلال أو وحدة" يعطي جسد الرب الحياة، بل من خلال اللاهوت الذي صار واحداً معه وهو قدوس وحياة.

أولاً: المسيح رأس الكنيسة، أي رأس جسده:

والجسد لا يمكن أن يحيا بدون الرأس، لأن الرسول يؤكد أن كل الأعضاء تُولد من الرأس "الرأس الذي منه كل الجسد" (كولوسي ٢: ١٩)، وهنا يجب أن نرى معنى العلاقة بالرأس:

١– الإنسان خُلِقَ من العدم، وليس له حياة في ذاته. أي أن حياته لم تنشأ بإرادة الإنسان ولا مصدرها الإنسان، بل مصدرها الله نفسه.

٢– يؤسِّس المسيح فينا حياته، أي الخليقة الجديدة، التي تنال وجودها من المسيح (راجع الفقرة الأولى من النص الثاني)، وهو ما يعني أن تناول القوت أو الخبز

السمائي[١] هو استمرار تدفق الحياة الإلهية من مصدرها الحقيقي، ربنا يسوع المسيح.

ثانياً: الإسرار الإلهية غير المائتة السماوية:

هكذا ننال الحياة الإلهية. والمجال يضيق عن تقديم اعتراف الآباء بأن الإفخارستيا هي الأسرار الإلهية غير المائتة السماوية، وهنا نرى على الفور:

١– إن الإسرار تجمِّع وتوحِّد؛ لأن الموت يفصل ويفرِّق، بينما نحن في سر الشكر نُصبح "واحداً مع المسيح" (راجع الفقرة الثالثة من النص الثاني).

٢– والاتحاد بالمسيح –حسب عبارات كل القداسات، وحسب عبارات كثيرة متكررة عند القديس كيرلس– يتم بواسطة الشركة في خبز الحياة، أي جسد الرب ودمه الواهب الحياة للعالم.

٣– وإذا كان المسيح لا ينقسم ولا يمكن فصل ناسوته عن لاهوته حتى وهو في القبر مدفونٌ مع الموتى، لأن نفسه انفصلت عن جسده، ولكن ظل اللاهوت متحداً بالنفس التي نزل بها الرب إلى الجحيم، ومتحداً بالجسد الذي كان في القبر، وهكذا نحن نتناول المسيح الواحد، وعبارة القداس البيزنطي، وهي ذات عبارة القديس كيرلس السكندري: "يجزَّأ ويوزَّع حمل الله الذي لا يُجزَّأ ولا ينقسم ويؤكل دائماً ولا ينفَد أبداً، بل يقدِّس المشتركين فيه" (كتاب الافخولوجي الكبير – طبعة المطران انطونيوس بشير ص ١٩٥٥ ص ١٠٧).

---

(١) يستطيع القارئ الذي يواظب على حضور القداسات أن يرى لماذا تحتفظ الكنيسة الأرثوذكسية باسم "الخبز" حتى بعد استدعاء الروح القدس. راجع على سبيل المثال صلاة قبل التناول في القداس الباسيلي "يا رئيس الحياة ملك الدهور .. الخبز الحقيقي الذي نزل من السماء واهب الحياة للعالم" لأن بقاء كلمة الخبز ضروري جداً لتأكيد أهمية الأكل وتذوق جسد الرب ودمه كطعام سمائي وهذا تؤكده الصلاة الأخيرة في القداس الغريغوري "نشكرك يا أبانا القدوس .. الذي أعطانا من هذا الطعام المقدس غير المائت".

فالمسيح لا ينقسم، بل هو رباط الوحدة وأساسها في الكنيسة. واتحاد اللاهوت بالناسوت ليس اتحاداً عرضياً قابلاً للانقسام. وحجة القديس كيرلس واضحة:

١– يسكن الروح في كل مؤمن على حدة. وحسب عبارة القديس كيرلس "يظل الروح القدس واحداً لا ينقسم، بل يجمعنا معاً (راجع الفقرة التاسعة من النص الثاني)، وهكذا على أساس هذا المقياس الذي لا يقبل الخطأ –لأننا حسب وصية الرسول "قارنين الروحيات بالروحيات"– يصبح المسيح في كل مؤمن على حدة وفي كل المؤمنين معاً.

٢– وقوة التقديس حسب عبارات القديس كيرلس السابقة هي:

أ– تجعل كل الذين ينالون أو يشتركون في جسد الرب، من ذات الجسد أي جسداً واحداً مع المسيح (راجع الفقرة العاشرة من النص الثاني).

ب– وإذا كانت قوة التقديس تزيل الانقسامات، وتطهِّر المؤمنين، وتجعل الكل معاً وحدة واحدة مع الثالوث .. فإن الحياة الجديدة والوحدة لها هدف ثمين جداً، وهو أن نتخلى عن الحياة حسب الطبيعة، ونسلِّم ذواتنا تماماً لشرائع *laws* الروح القدس لكي نتحول إلى طبيعة جديدة.

جـ– هذه الطبيعة الجديدة هي في كل عضو على حدة وفي كل الجسد؛ لأنها طبيعة المسيح[١]، حسب قول القديس كيرلس: "فهو بجسد واحد أي جسده، يبارك بسر الإفخارستيا الذين يؤمنون به، ويجعلنا جميعاً من ذات الجسد واحداً معه" (الفقرة الثانية من النص الثاني). وأيضاً: "صرنا جسداً واحداً لا يمكن أن ينقسم؛ لأن المسيح لا ينقسم" (المرجع السابق الفقرة الثالثة).

---

(١) كانت سعادتنا كبيرة جداً عندما صدر كتاب الخليقة الجديدة للأب متى المسكين أثناء إعداد هذه الدراسة وهو يلقي الضوء على هذا الموضوع الدقيق الذي لم يكتب فيه إلَّا القليل ويؤكد الكتاب أننا ننال ذات طبيعة المسيح.

هل تأكل الكنيسة نفسها في سر الإفخارستيا؟

إذا كانت وصية الرسول بولس لنا، هي: "قارنين الروحيات بالروحيات"، فإن مقارنة وحدة جوهر الثالوث بوحدة الكنيسة، ومقارنة وحدة جسد المسيح بوحدة المؤمنين، وهي أمور فائقة العلو وتمثل جوهر الأرثوذكسية، تفرض علينا الجواب على هذا السؤال المعاصر، وذلك حتى لا نترك فرصةً للتهكم والسخرية من سر الكنيسة.

أولاً: مقارنة وحدة جوهر الثالوث بوحدة الكنيسة.

وهي المقارنة التي قدَّم فيها القديس كيرلس مستوى السلوك المسيحي نفسه، أي الاتفاق والاتحاد الروحي، رباط المحبة، حتى تصبح وحدة جسد المسيح الكنيسة "مشابهة للوحدة الطبيعية"، أي وحدة جوهر الآب والابن والروح القدس".

تحذير القديس كيرلس:

يقول في كلمات واضحة لا تقبل التأويل:

> "رباط المحبة الذي بيننا وفينا، وقوة الاتفاق، لا تستطيع أن تجعلنا وتحفظنا مثل الوحدة غير المتغيرة بين الآب والابن" نحن مثال والثالوث حقيقة. نحن شبه الحق والثالوث هو الحق".

ثانياً: وحدة جسد المسيح.

ويؤكد القديس كيرلس بعد ذلك ما يحدث لنا، أي المستوى الثاني، وهو وحدة الطبيعة الجديدة التي من المسيح وفيه، لأننا ننال طبيعة المسيح نفسه، وهي الطبيعة الجديدة التي تُعطى لنا "والمخلوقة حسب الله" (أف ٤: ٢٤)، والتي تنمو نمواً من الله (كولوسي ٢: ١٩). وهي الطبيعة الواحدة الموجودة والكائنة في كل إنسان صارت له

طبيعة المسيح الإنسانية في المعمودية والإفخارستيا، أي وحدة الجسد الواحد.

تحذير القديس كيرلس:

يقول القديس كيرلس:

"إن هذه وحدة طبيعية، أي وحدة طبيعة، ولكن عندما يتحد الكل بالله، فإن هذا الاتحاد لا ينفي ولا يجرد:

١- اختلاف الأجساد.

٢- تنوع الشخصيات.

فبطرس لن يكون بولس، وبولس لن يكون بطرس رغم أنهما واحدٌ وهكذا نصبح مثل الثالوث: جوهر واحد، ولكن هذا الجوهر هو جسد المسيح. ومثل الثالوث: تمايُز أقانيم، يبقى التمايز بين كل المؤمنين.

وكما وحَّد الرب في أقنومه الطبائع المختلفة وجعلها واحداً دون اختلاط .. هكذا نبقى بشراً كما نحن، كما بقيت طبيعة المسيح الإنسانية متحدة بلاهوته دون اختلاط أو امتزاج أو تغيير".

إذن، هذه الوحدة ليست وحدة روحية فقط، بل حسب كلمات القديس كيرلس هي وحدة *Physical* ولذلك هي وحدة جسدانية؛ لأن جسد المسيح هو جسد إنساني حقيقي.

الكنيسة لا تأكل نفسها للأسباب التالية:

أولاً: لأننا لا نمتزج بالمسيح، ولا يذوب المسيح فينا ونذوب نحن فيه. هذه الفكرة، فكرة الذوبان، هي فكرة أوطاخية محضة، وهذا المرطوقي بالذات هو صاحب التعبير المشهور عن ذوبان ناسوت الرب يسوع مثل "قطرة عسل في محيط من الماء"، وقطرة العسل هي الناسوت، ومحيط الماء هو اللاهوت.

ثانياً: إذا كان كل اقنوم من الاقانيم له صفة اقنومية خاصة به: الأبوة للآب، البنوة للابن، الانبثاق للروح القدس، والثالوث جوهر واحد فيه ثلاثة أقانيم متمايزة .. فإن تمايز الاقانيم، وتمايز الطبيعتين في المسيح الواحد –وهذا هو معنى العبارة "بدون اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير"– يجعلنا نظل في ذات التمايز كما شرحنا من قبل، وهو ما يجعل كل فرد فينا عضواً مختلفاً عن باقي الأعضاء حسب شرح الرسول نفسه في الإصحاح الثاني عشر من رسالته إلى كورنثوس وبالذات عدد ١٢ وعدد ٢٧.

ثالثاً: إن اتحادنا بالمسيح في الإفخارستيا، هو اتحادٌ بالأسرار الإلهية غير المائتة، وهي لا تخضع للموت ولا للفساد، ولا تتحول فينا إلى طبعٍ مائتٍ فاسدٍ، بل نحن نتحول إلى طبيعة المسيح الغالبة الموت، ولذلك نقوم من بين الأموات. وهنا يملي علينا التعليم الرسولي نفسه أن نعرف أن الحياة تنحدر من الرأس لكي تغذِّي أعضاء الجسد، دون أن تتحول الرأس وهي المصدر والينبوع إلى شيء آخر.

وقانون الموت هو الزوال والاستهلاك بالاستعمال والفناء بمرور الزمن. أمَّا قانون الروح القدس فهو النمو مع الزمن والسعي نحو الكمال الذي سوف نراه فينا يوم القيامة.

نحن نسير من الموت إلى القيامة في المسيح بينما الطبائع التي لا تنال الفداء تسير من الولادة إلى الموت، ثم هلاك الدينونة.

"نأكله لكي نحيا به"، وإن لم نأكله لا يكون لنا حياة حتى في ذواتنا حسب قول ربنا يسوع المسيح له المجد (يوحنا ٦: ٥٤).

وعندما ننال بالروح القدس "خبز الله" النازل من السماء "الواهب حياة للعالم" (يوحنا ٦: ٣٣)، فإننا ندخل السماء ونحيا حسب قانون السماء الذي لا يلاشي، بل يحفظ.

يغذِّي؛ لكي يحدث النمو.
يوزِّع ما هو مختلف من عطايا؛ لكي تقوى الوحدة.
يُبيد الموت؛ لكي ننال الحياة الأبدية.
يطرد الفساد؛ لكي لا يبقى فينا انقسام.
يوحِّدنا؛ لكي يحفظ الفروق والتمايز.
يجعلنا جسد المسيح؛ لكي ننال القيامة وحياة الدهر الآتي.

الفصل الحادي عشر

الأجساد الثلاثة،

نظرية لتدمير وحدانية الحياة في المسيح

من التهكم على الإفخارستيا والكنيسة جسد المسيح، يتساءل الأنبا شنودة الثالث: هل تسجد الكنيسة لنفسها عندما تقول الكنيسة: "نسجد لجسدك المقدس" في الليتورجيا؟ إلى سخرية لا تصدر عن إنسان مسيحي استوعب سر تجسد الرب، فقال عن جهلٍ: إن الكنيسة تأكل نفسها لو كانت هي جسد المسيح. وكأن رسول المسيح القديس بولس قد أخطأ عندما قال للكنيسة في كورنثوس: "أنتم جسد المسيح وأعضاؤه أفراداً" (١كو ١٢: ٢٧)، وبالتالي كان عليه أن يتأنى قبل أن يهاجم التعليم الرسولي الذي ربما لم يكن يعرفه. وكأن الرب يسوع نفسه الذي كان شاول يضطهده وهو يقول لشاول الطرسوسي: "لماذا تضطهدني" (أع ٩: ٤)، كأنه لم يكن يعرف أن المؤمنين هم جسده الذي يضطهده شاول، والذي عندما عاد إلى المسيح مؤمناً قال إن "الكنيسة جسد المسيح"، وإننا ننضم إلى هذا الجسد الواحد بالمعمودية وبالروح القدس "لأننا اعتمدنا لجسد واحد" (١كو ١٢: ١١ – ١٣).

ولأن الكل لزم الصمت، ربما عن جهل، وربما عن خوف، وربما لأن الذين صمتوا كانوا يؤمنون بأن حل القضايا العالقة هو بموت صانع هذه القضايا – وهو خطأ

مميت؛ لأن الأمر هنا متعلق بالإيمان والعقيدة نفسها؛ لأن ما كُتب من سخرية وتهكم، ومن ثمَّ تمزيق للمسيح الواحد نفسه إلى ثلاثة أجساد[١] هو أغرب (هرطقة) قيلت في تاريخ كنيسة مصر، وهي هرطقة فعلاً، لم يُحاكَم عليها قائلها ولم يُراجع ولم يتُب عنها، بل زاد على ذلك –فيما خص الإفخارستيا– بتبنيه العبارة النسطورية القائلة: "إن الرب لم يقل خذوا كلوا هذا هو لاهوتي بل قال هذا هو جسدي".

وتراجع الشهادة لصحة التعليم، كان هو سمة عصر الصمت الطويل الذي دام طوال زهاء أكثر من ربع قرن، كان الولاء فيه للأشخاص أكبر وأعظم من الولاء للإيمان والولاء للمسيح نفسه، والتمسك بالزعامة أعظم من التمسك بشخص الرب نفسه .. تلك محنةٌ حقيقية لمن يُدرك ويعلم **أن قوام الحياة الكنسية هي يسوع نفسه رأساً وجسداً، لاهوتاً وناسوتاً، وكل ما حققه في جسده، وفي تقدم البشرية فيه بسبب الاتحاد الأقنومي** .. لقد ضاع الإيمان وسط مهاترات قادها إعلامٌ فج، ولكن بقيت النظرية:

- جسد المسيح الذي أخذه من العذراء.
- جسد المسيح في الافخارستيا.
- جسد المسيح الكنيسة.

والتقسيم اللفظي بهذا الشكل يمكن أن يقنع القارئ بأننا إزاء أجساد ثلاثة.

فقدانٌ للوعي:

أولاً: الجسد يتكون وينمو حسب القوانين البيولوجية .. هكذا وُلِدَ الرب بعد أن كان جنيناً، وهو من تقول عنه صلاة القسمة: "الذي نمى قليلاً قليلاً بشبه البشر"، وقد بلغ الثلاثين من العمر الإنساني حسب شهادة الإنجيلي لوقا. معروفٌ لنا أصل

---

(١) لا يتسع المجال هنا لاقتباس كل ما قاله قداسة البابا شنودة الثالث في خصوص هذا الموضوع، وعلى القارئ الكريم أن يرجع لكلامه في كتابه "بدع حديثة" اعتباراً من ص ٩٩ وما بعدها، كما يمكن أيضاً الرجوع لكتاب "سنوات مع أسئلة الناس" في غير موضع.

الجسد أو ما يُعرف في الاصطلاح العام بـ"الناسوت"، ومعروفٌ لنا تاريخ هذا الجسد، ميلاده، وصلبه، وقبره، وقيامته .. هذا هو جسد الرب الذي أخذه من العذراء.

ولكن الوعي يتوه بعد ذلك عن حقيقة هامة، وهي أن هذا الجسد هو كل شيء بالنسبة لنا نحن البشر، فهو الذي يحمل لنا الاتحاد الأقنومي – والميلاد البتولي – صبغة المعمودية – الانتصار في البرية – قوة طرد الشيطان – غلبة الموت – اندحار القبر – مجد القيامة – مجد حياة الدهر الآتي. هذا ليس تاريخاً فقط، بل هي حقائق الخلاص التي يحملها لنا شخص يسوع في جسده، والتي تُعطى في هذا الجسد بسبب الاتحاد الأقنومي، أي أنها من اللاهوت وتوهب لنا بسبب الاتحاد الأقنومي.

ثانياً: لكن من أين جاء هذا الجسد الثاني، أي جسد المسيح (في الإفخارستيا)؟ لقد نسى الأنبا شنودة أنه لم يكن جسداً فقط، بل جسده ودمه اللذان سُلِّما لنا بواسطته في العلية يوم الخميس الكبير. فعندما تكلم عن الأجساد الثلاثة، لم يتكلم عن الدم؛ لأنه لم يرد ذكرٌ لدماء ثلاثة، بل دمٌ واحد، وهذا يؤكد وحدانية الجسد الواحد.

وبشكلٍ خاص، يعتبر إسقاط "الدم" من تعبير الأنبا شنودة إسقاطٌ غريب؛ لأن الدم هو حياة الإنسان حسب لاويين ١٧: ١١، ولأنه لا جسد بلا دم، لذلك يقتضي الحديث عن ثلاثة أجساد، الحديث عن ثلاثة دماء. والحديث عن ثلاثة دماء هو حديثٌ يهدم الخلاص برمته، ويفصل ذبيحة ربنا يسوع عن تجسده وموته وقيامته؛ لأنه قدَّم دمه الواحد بالروح الأزلي (عب ٩: ١٤)

فهل جاء هذا الجسد من لا شيء؟ ... أبداً.

وهل خُلق من العدم؟ ... أبداً.

أليس هو ذات الجسد الذي أخذه "من والدة الإله القديسة مريم وجعله واحداً مع لاهوته بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير" كما يقول كل كاهن قبطي في صلاة

الاعتراف حتى النفس الأخير .. أليس هو ذات الجسد؟

عندما جلس الرب مع التلاميذ في العلية، لم يكن هناك جسدان، بل جسدٌ واحدٌ وسؤال الأخوة الإنجيليين عن كيف يكون له جسد واحد، ويعطي بنفسه جسده وهو لا زال حياً مع التلاميذ جالساً معهم يعطيهم جسده ودمه، وهو لم يكن قد صُلب بعد، هو سؤالُ جهلٍ واستهتارٍ معاً.

والاعتراض الإنجيلي هذا، هو ذاته اعتراض الأنبا شنودة الثالث؛ لأنه يذكر في كتابه "٥ تأملات في أسبوع الآلام" أن الرب يسوع لم يسلِّم جسده ودمه، بل سلَّم "رمزاً"؛ لأنه لم يكن قد صُلب بعد .. وتلك هي مصيبة وآفة لاهوت حركة الإصلاح؛ لأنه أغلق دائرة الخلاص على صلب الرب يسوع فقط، وترك التجسد والقيامة والصعود، بل وأهمل أيضاً انسكاب الروح في يوم الخمسين؛ مما أدى إلى انفجار الحركة الخمسينية في مطلع القرن العشرين باحثةً عن الروح القدس الغائب من لاهوت عصر الإصلاح.

ولكننا إذا عدنا إلى العلية، وجدنا أيقونة سر الشكر كاملةً؛ لأن الرب وحده بسلطانه وإرادته وحده وبشخصه وحده يعطي جسده ودمه عبر كل العصور ابتداءً من العلية حتى أقصى الأرض. والسؤال عن ذلك بـ "كيف"؟ هو سؤالٌ لا بُد من الإجابة عليه من داخل دائرة سر المسيح وسر التدبير غير المحصور في الصلب على الجلجثة وحده، بل الممتد من يمين الآب قبل كل الدهور وقبل خلق العالم مروراً بأبواب التاريخ من بيت لحم حتى الصعود عبر الأردن – البرية – الجلجثة – القبر – القيامة، تلك هي مراحل التدبير التي أعطى فيها الرب لنا حياته الإلهية المتجسدة فينا.

ما حدث في العلية هو ما يحدث في كل قداس. وقبل الصلب أو بعد الصلب لا يغيِّر شيئاً طالما أن الصليب هو أحد مراحل التدبير العظمى، وهي مرحلة سحق الموت وسحق الفساد ورفع الدينونة عن الجنس البشري كله (يوحنا ٣: ١٦).

الحياة الإلهية لا تعرف الموت، ولا هي قابلة للتقسيم؛ لأن التقسيم دخل مع الخطية والموت. لقد جاء الرب لكي يقدم لنا تقدمة حرة بالإرادة الحرة، وبمحبة حرة، وكان من الضروري أن يفعل ذلك قبل أن يموت على الصليب؛ لأن ما حدث بعد الصلب والدفن دخل مرحلة تعذَّر على التلاميذ جميعاً معرفتها أو استيعابها.. لم يعرف أحدٌ كيف قام الرب من الأموات، ولكن الكل شاهدوه حياً، بل أكلوا وشربوا معه بعد قيامته (أع ١٠: ٤١).

قبل الصلب أسَّس الرب هذه العطية الحرة؛ لأنها بالإرادة الحرة، ولأنه هو القيامة والحياة (يوحنا ١١: ٢٥) حتى قبل أن يموت، وإلَّا كيف أقام الموتى مثل لعازر؟ وهو ما تؤكده الكنيسة في تسليم التدبير بوضع "سبت لعازر" قبل بداية البصخة وقبل أحد الشعانين تأكيداً على أن من سيجوز الموت هو الحي وليس الخاضع لسلطان الموت، ولذلك قال الرب قبل خميس العهد عن حياته:

"لي سلطان أن أضعها
لي سلطان أن آخذها أيضاً
ليس أحد يأخذها مني
هذه الوصية قبلتها من أبي (يوحنا ١٠: ١٨).

وسلطان أن يسلم حياته –وهو هنا لا يقصد الصلب فقط، بل حياته كلها– هو سلطانٌ يملكه هو وحده؛ لأن هذا هو تدبير الثالوث، هو "وصية الآب".

يدخل هذا السلطان في ترتيب التدبير يوم الخميس وتمتد حياته الإلهية المتأنسة إلى الخبز والخمر ويعطي الحياة بسلطان الحياة؛ لأنه الكلمة ***Logos*** الخالق الذي لم يفقد سلطانه الخالق، ويجعل من الخبز جسده والخمر دمه. وحسب اللغة الآرامية التي تكلم بها الرب في العلية، الخبز هو "لِحِم = لحم ***flesh*** = الخبز ***Bread*** .. والخمر هو دم العنب، هو "دما" في الآرامية، ويعني الخمر، النبيذ الأحمر، ويعني أيضاً الدم ***Blood*** ولم يكن في الكلمات أية ثنائية، بل كانت الكلمات:

هذا خبزي = هذا جسدي.

هذا خمري = هذا دمي.

لأن القوة الخالقة تجعل من الخبز جسداً ومن الخمر دماً، والقوة الخالقة سوف تعطي لكل إنسان هذا.

ويقول الرب نفسه عن الخبز: "خبز الله هو النازل من السماء" (يوحنا ٦: ١٣) الذي لا يمكن أن يخضع للمقاييس الأرضية، ولذلك هو "من السماء الواهب حياة للعالم .. قال يسوع: "أنا هو خبز الحياة" (يوحنا ٦: ٣٥). خبز الموت يُقسَّم وينتهي، لأنه من الأرض، ولكن يسوع جاء من فوق من عند الآب، ولذلك يعطي هذا الخبز القيامة "أنا أقيمه في اليوم الأخير" (يوحنا ٦: ٥٤).

جسدي مأكلٌ حقيقي

عندما قال الرب: "جسدي مأكلٌ حقيقي"، فقد أشار إلى:

١– حقيقة جسده عديم الفساد؛ لأن الجسد الفاسد هو جسدٌ مزيَّفٌ دخل عليه الموت وأفسده.

٢– أن جسده جسدٌ حيٌّ ومحيي؛ لأنه غلب الموت في الآخرين وغلبه في ذاته.

٣– أن جسده جسدٌ مقدسٌ لم تستطع الخطية أن تسود عليه، ولذلك ظلَّ "جسداً حقيقياً"؛ لأن الخطية تزيِّف الجسد، فلم يَعُد أي جسد بشري لأي إنسان جسداً حقيقياً، لأنه فقد الحياة وفقد الخلود؛ لأن الحق = الحياة، ولذلك قال الرب: "مَن يأكلني يحيا بي" (يوحنا ٦: ٥٧). الحق هو استعلان يسوع: "النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا" (يوحنا ١: ١٧). هو الحق نفسه، ولذلك جسده حقٌ، أمَّا أجساد كل البشر، فهي ليست حقاً لأنها خاضعة للانحلال ولا تزال تنتظر الفداء بالقيامة (رو ٨: ٢٣).

السؤال عن كيف أعطى وهو جالس؟ هو سؤال عن الحياة وعن المحيي وعن واهب الحياة وعن خبز الحياة النازل من السماء .. وكيف، لها إجابات كثيرة، ولكن الإجابة الحق هي الحياة التي تحيي، فقد جاء لكي يحيي "كما أرسلني الآب الحي .. أنا حي بالآب" (يوحنا ٦: ٥٧)، الحياة تمتد للموتى "مَن يأكلني يحيا بي" (يوحنا ٦: ٥٧)، فكيف تمتد الحياة من العلية إلينا؟ كيف امتدت الحياة من الكلمة وأبقت الجسد بلا فساد (أع ٢: ٢٧)؟ والجواب هو لأن الاتحاد الأقنومي هو سر امتداد الحياة. كيف أعطى جسده وهو جالس مع التلاميذ؟ بل وكيف يعطي جسده الآن وهو جالس عن يمين الآب؟ والجواب هو إن الجالس هو الحي مع التلاميذ، ومع المؤمنين، وأن الجلجثة لم تكن وحدها هي العطاء الوحيد. فقد سبق الجلجثة عطاءٌ أعظم، هو إخلاء الذات واقتبال صورة العبد (فيلبي ٢: ٦) وسار العطاء في نفس طريق الحياة عندما أعطى الحياة للموتى وشفى المرضى ورد الحرية للمأسورين بالخطية، ورفض رجم الزانية، بل أدخل اللص الصالح إلى الفردوس وسبقه وأعد له مكاناً وكان في انتظاره .. هذا هو يسوع الحياة. وهو في العلية تمتد إرادته إلى الخبز والكأس، هي إرادة إلهية متأنسة لأنها قوة الحياة المتجسدة، وتلاشي تماماً الزمان والمسافة؛ لأنها القوة الخالقة، ويمسك يسوع بالخبز ويجعله جسده، وهنا يصبح الخبز هو "خبز الله" وليس مجرد خبز، ويمسك بالكأس ويصبح الخمر دم الله أيضاً، الدم الحقيقي الذي عندما سُفك بعد ذلك لم يكن دمَ ميِّتٍ، بل دم رئيس الكهنة الذي قدَّم ذاته بروح أزلي (عب ٩: ١٤).

كيف سال ذلك الدم في العلية؟ سال كقوة حياة مثل تلك التي خرجت منه عندما لمسته نازفة الدم، ومثل الطين الذي صنعه وردَّ للمولود الأعمى البصر ... كيف؟ لأن الكلمة المتجسد هو خالق كل شيء، والسؤال يجب أن يكون عن عطية الحياة .. كيف يعطي الحياة؟ والجواب هو بتجسده وموته وقبره وقيامته وصعوده؛ لأنه غير خاضع لقوة الحياة البيولوجية، بل بالحري الحياة البيولوجية خاضعة له لأنه في ميلاده الإنساني لم يكن ميلاداً إنسانياً فقط، بل كان ميلاداً إنسانياً إلهياً؛ إذ حُبِلَ به بالروح القدس، وحتى في حياته الإنسانية على الأرض التي وُصِفَت بكل دقة: بـ"أيام جسده" (عب ٥: ٧)، لم

يكن يحيا حياةً إنسانيةً فقط، بل حياة إنسانية إلهية، أو بكل دقة حياةً إلهيةً متجسدة. وفي موته لم يكن موت إنسان؛ لأن الموت يقهر كل البشر، ولكنه قهر الموت، وكان جسده في القبر بلا فساد (أع ٢: ٥)، وبعد موته تمجَّدت إنسانيته بالقيامة، بل يقول رسوله المبارك: "قام بالروح القدس" (رو ٨: ١١)، فصارت حياته منذ ولادته بالجسد إلى قيامته، بل وصعوده في مجال روح الحياة، أي روح الآب المحيي.

الانفصال والتقسيم دخل مع الموت، وذلك الهاجس الخيالي الفائق الذي يحاصر الرب بما هو ثابت في المخيال (المخيلة) الإنساني بأن سفك الدم هو إحداث جرح في الجسد لكي ينزف الدم – هذا ينطبق على أي إنسان مثلنا، لكن يجب أن نعرف أنه حتى نحن، نسفك الدم بشكل غير منظور في الأعمال الشاقة والخطرة التي تستوعب كل ما في أجسادنا من طاقة وحيوية. هو حقاً بلا خطية لأنه انفصل عن قوة الحياة البيولوجية بميلاده، وعن الموت نفسه لأنه بلا خطية والخطية دخلت مع الموت (رو ٥: ١٢) ولم يكن الرب خاطئاً، بل أباد الخطية أي القوة القاتلة "وإذ كنتم أمواتاً بالخطايا أحياكم معه" (كولوسي ٢: ١٣) "حمل خطايانا في جسده على الخشبة" (١بطرس ٢: ٢٤)، أي حمل موتنا وكل أسباب الموت هي الخطايا، ولما "ذاق الموت بالجسد" أباد الموت، وقد أباد الموت لأنه كان بلا خطية، لم يكن فيه أثم ولا غش، بل عندما جاء الربُّ إلى الموت بإرادته الحرة أباده لأن الموت لم يكن له مكان أو بذرة في يسوع، ولذلك قال رسول الرب: "لم يكن الموت قادراً على أن يمسك به" (أع ٢: ٢٧). هذا هو يسوع الحي والحياة والمحيي.

عندما قدم ذاته في العلية، كان هذا هو ذات التقديم الذي تم على الجلجثة. تقديم واحد وله مصدر واحد وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: إن اقنوم الله الكلمة لا ينقسم بسبب تنوع الأعمال والأفعال، وهناك مثال واضح على عدم الانقسام في (١كو ١٢: ٣ وما بعده)، حينما يؤكد رسول الرب إن الروح واحد والمواهب متنوعة، ولكن الروح الواحد هو نفسه الذي يوزِّع المواهب، وهو

يبقى الروح الواحد غير المنقسم.

ثانياً: "المسيح الرب الواحد غير المنقسم من بعد الإتحاد إلى اثنين:إله وإنسان"، عبارة ذات عدة دلالات، ولكن الدلالة التي تخصنا هنا هي أن أعمال الرب وهو في الجسد وفي حساب الزمان والمكان ليست إنسانية فقط ولا هي إلهية فقط، بل هي أعمال الرب الواحد المتجسد الذي دخل الحياة الإنسانية كإله متجسد حاملاً في كيانه زخم ومجد الإلوهة ومُطوِّعاً الإنسانية التي أخذها لكي تنمو بالاتحاد صاعدةً فيه وبه نحو غاية التدبير، وهو **كمال الطبيعة الانسانية فيه وبه**، وهذا يعني أن الإنسان الجديد هو يسوع المسيح وهو آدم الثاني، وهو منذ البداية، منذ أن حُبِلَ به يتعامل مع الزمان والمكان ليس مثل آدم الأول الترابي الذي من تراب الأرض، ولأن آدم الثاني الرب من السماء (١كو ١٥: ٤٧)، فهو في الزمان حاضر معنا بجسده، ولكنه عن يمين الآب حتى وهو على الصليب. وتعبِّر قسمة صوم الميلاد عن ذلك بتقوى أرثوذكسية مجيدة: "الكائن في حضنه الأبوي كل حين"، أي الكائن في حضن الآب حتى وهو في القبر. هذا ليس انشطاراً ولا انقساماً في الرب، وإنما لأنه لم يفقد إلوهيته فهو يملأ كل زمان ومكان ولأنه في الزمان يخضع الزمان له.

ثالثاً: ليس في التدبير الالهي للكلمة المتجسد قبل وبعد، أي أننا لا نحسب بحساب الزمان ما حدث هناك، مثل بيت لحم أي الميلاد البتولي الذي حمله في كيانه مؤسِّساً في كيانه بداية جديدة للجنس البشري، ولذلك وُلِدَ بدون أب جسداني، فهل غابت أو أصبحت هذه الحقيقة الكيانية غير ذي أهمية لأنه قام من الأموات؟ الجواب القاطع بكل تأكيد لا، فقد قام محوِّلاً الجسد الذي أخذه من مريم إلى جسد عديم الفساد وخالداً، فتم بذلك ما كان يهدف إليه من ميلاده البتولي .. أي الإنسان السمائي الذي وُلِد من الروح القدس ومن العذراء، وهو هنا في القيامة يقوم بالروح القدس الذي سبق ومسحه بعد خروجه من مياه الأردن لكي يصبح الرب من السماء – سمائياً أي محولاً في كيانه ما هو ترابي إلى ما هو خالد ومجيد وعديم الفساد، فهل حدث هذا بترتيب زماني؟ حسب الظاهر نعم، وحسب الحقيقة لا؛ لأن الزمان نفسه لم يرتب التدبير، ولكنها

الإرادة الإلهية، تلك التي جعلت رسول المسيح يقول إننا بهذه الإرادة قُدِّسنا عندما قدم يسوع نفسه لأجلنا (عب ١٠: ١٠)، ولكن هذه الإرادة المعلَنة في الزمان لم تكن من صنع الزمان؛ لأن الكلمة ليس مخلوقاً، بل هو كما يقول رسول الرب: "اختارنا فيه قبل تأسيس أو خلق العالم" (أفسس ١: ٣) فهو كائن قبل كل زمان ومكان.

في العلية حدث أمرٌ عجيبٌ فائق:

١– استعلان المحبة، وسلطان المحبة الذي لا يعرف الحدود –أي حدود الزمان والمكان– لأن "الله محبة".

٢– كان الوجود الإنساني للرب في العلية مع التلاميذ هو الاستعلان الإلهي لعطاء فريد غير مقيَّدٍ بما نعرفه حتى عن طقوس الفصح اليهودي، فأعلن محبة الآب في عطاء جسده وأعلن محبة الروح القدس الذي مسحه.

٣– عندما كان في العلية مع أحبائه، رسم سر التدبير الإلهي في الصورة أو "الأيقونة" التي سوف تؤسس خدمة الثالوث لنا، أي الليتورجية؛ لأن الثالوث يخدمنا في رئيس الكهنة الذي يقدم قربان حياته، هو من الآب الذي أرسله ومن الروح القدس الذي مسحه، ومن الاتحاد الأقنومي الذي ألزم محبته أن يشاركنا حياته، ولذلك بمحبة يقول: "إنني اشتهيت أن آكل معكم هذا الفصح" (راجع لو ٢٢: ١٥). لكن هذه لم تكن شهوةٌ للفصح اليهودي، بل شهوة تقديم ذاته، فقد سبق يوحنا المعمدان وأشار إليه على أنه هو حمل الفصح الذي يحمل موت العالم أو خطية العالم (يوحنا ١: ٢٩). لقد أراد أن يقابل الموت منذ أن وُلِد، قابله في الآخرين، ومع ذلك كان هؤلاء الذين قاموا من الأموات مثل لعازر وابن الأرملة بلا حياة أبدية؛ لأن الحياة الأبدية غير كاملة بدون تحول الناسوت إلى عدم فساد، ولذلك فداء الجسد هو في انتظارنا جميعاً. أمَّا فداء جسد يسوع فهو بواسطة دمه الخاص به كما يقول أثناسيوس العظيم في الرد على الأريوسيين مقالة ٢: ٦١. فهو ليس في سفك الدم فقط، بل هو بسفك الدم وبقوة الإرادة؛ لأن سفك الدم هو استعلان الإرادة، وهو ما يعبِّر عن حرية التقديم وحرية المحبة، ولذلك جاء

يسوع وجلس في وسط الأحباء، وقدَّم تقدمة المحبة وسفك دمه بقوة الإرادة قائلاً: "هذا هو دمي الذي للعهد الجديد". وقدَّم جسده بقوة الإرادة قائلاً: "خذوا كلوا (هذه هي حياتي) هذا هو جسدي"، فالإرادة الحرة تفعل ما تشاء حسب التدبير. وهنا يبقى الخبز والخمر هما معاً ما أحضره التلاميذ، وهو ما سوف تقدمه الكنيسة بعد ذلك، تقدمة إرادة حرة ومحبة حرة؛ لكي يتم اتحاد الإرادة الإلهية المتجسدة بإرادة الكنيسة عندما تقدم الخبز والخمر على مائدة الرب أو على المذبح[١].

ما هو دور الخبز والخمر في عمل الإرادة؟

إن ما كُتب عن تقدمة ملكي صادق (الخبز والخمر) وهو كان الله العلي (إيل عيلون – إله شعوب الأرض وليس إله إسرائيل فقط، لأن اسرائيل لم يكن قد ظهر بعد في التاريخ)، هو فعلاً إشارة إلى الكهنوت غير اللاوي ليسوع الذي شرحه بكفاية رسول الرب في العبرانيين (ص ١٠: ١ – ٨). هذا جيد جداً كإشارة إلى ما سوف يتم في التدبير. وحقاً الخبز والخمر معاً كانا من تقدمة الفصح اليهودي .. هنا حدث امتزاج بين الرمز والإشارة *Type* والحقيقة؛ لأن التاريخ القديم هو تاريخ عبور ملاك الموت وفداء الشعب، والتاريخ الجديد هو تاريخ العبور إلى الحياة الجديدة التي يتم فيها تجديد الخليقة والكون كله، فكيف يدخل الكون في التجديد؟ ليس بواسطة تجسد الابن الوحيد فقط، بل بعناصر الكون المختلفة: المياه – الخبز – الخمر؛ لأن الكون الذي دخل حالة "المخاض" الكوني (رو ٨: ٢٢) لم ينفصل عن خالقه، بل هو مدعو إلى التجديد، ولذلك تلك الدعوة الجاهلة بأن الخطية هي انفصال عن الله هي دعوة بأن الكون، وهو بيت الانسان، لم ينل أي اهتمام في تدبير الله. الخبز والخمر معاً من الكون، والتاريخ القديم هو العبور من الموت إلى الحياة، والتاريخ الجديد هو مخاض الحياة الكونية التي لا يمكن فصل الإنسان عنها لكي يتم تجديد الكل؛ لأن الخليقة تنتظر استعلان أبناء الله، كما يقول القديس بولس: "لأن انتظار الخليقة يتوقع استعلان ابناء الله" (رو ٨: ١٨).

---

(١) المائدة = المذبح حسب كل صلوات الليتورجيات الأرثوذكسية لأن الإفخارستيا وليمة الملكوت وهي ذبيحة الشكر والمحبة.

هل هذا جسدٌ ثان، أم هو ذات الجسد؟

هل قدَّم يسوع جسداً غير جسده؟ لو كان يسوع قد فعل ذلك لسقط تدبير الخلاص كله في هاوية العدم؛ لأن هذا الجسد الثاني المزعوم ليس هو الرب المتجسد، وهذا يضع يسوع خارج التاريخ الإنساني، ولذلك حسابه بالجسد الثاني ليس جهلاً فقط، بل هو محاولة شيطانية لتدمير تدبير الخلاص. وبالتالي، الجسد الثالث هذا –في هذه النظرية– ليس هو اجتماع الرب معنا، ولأنه لم يولد من امرأة، فلا نعرف من أين جاء، وبالتالي هو قطع كل علاقة كيانية بين الرأس والأعضاء .. هذا أشبه بالقصة الخرافية المعروفة التي وردت فيما يسمى "إنجيل برنابا"، وهو أفظع تزوير تم في التاريخ عندما يقول الكاتب الحشاش إن يسوع أسقط شكله على يهوذا وأخذه اليهود وصلبوه وهم يظنون أنه يسوع، وبذلك يكون يهوذا قد صُلِبَ بدلاً عن المسيح يسوع، وبالتالي لم تنل الإنسانية الخلاص والقيامة والخلود؛ لأن الذي مات لم يقهر الموت، بل غلبه الموت.

هذا الحديث عن الجسد الثاني لا يختلف في جوهره عن خرافة إنجيل برنابا، وإن كنا لا نظن أن فكرة الجسد الثاني هي منقولة من إنجيل برنابا، ولكنها –في الغالب– نتيجة سيطرة الخوف والحقد على عقول لا تريد للرب أن يعطي؛ لأن العطاء، أي عطاء الذات وسفك الدم وتقديم الحياة يفضح سلوك هؤلاء الذين تحصَّنوا في الألقاب والمال والزعامة وتعذَّر عليهم أن يكون واحدٌ منهم "الراعي الصالح الذي يبذل نفسه عن الخراف" (يوحنا ١٠: ١١)، بل هو الجزار الذي يذبح الخراف؛ لأن ذبح الخراف يؤكد له سلطاناً مزعوماً أعطاه لنفسه.

وحساب الأجساد هنا له مقاصد شريرة، يمكننا أن نحصرها في الآتي:

١– الكنيسة ليست جسد المسيح؛ لأن عكس هذا يحدد خدمة الكهنوت بأنها خدمة بذل لا سلطان، وأنها نعمة ذبح وليست زعامة، وأن الكاهن هو مثالٌ لمن أعطى جسده للكنيسة لكي تكون جسده الواحد مثلما يحدث في الزيجة المقدسة التي يصبح

فيها الرجل والمرأة جسداً واحداً في اتحاد لا يلغي الرجولة ولا يحذف الأنوثة، بل يخلق الحياة الواحدة التي تأخذ قوة الاتحاد من اتحاد الرب بالكنيسة حسب التسليم الرسولي الذي قدَّمه رسول المسيح في (أفسس ٥: ٣٢).

لكن لكي تحل القوة والقهر محل المحبة لا بُد من تغيير هوية الكنيسة. ولكي يحل السلطان محل الخدمة والبذل لا بُد من تغيير اسم الكنيسة نفسه لكي تحمل اسماً رمزياً أو رقماً، تماماً كما كان ولا زال يحدث في المعتقلات والسجون عندما يأخذ السجين رقماً يحل محل اسمه الشخصي.

من لا ينوح ويبكي على خطايا هؤلاء إلَّا الجاهل الذي لا يدرك أن اتحاده بالمسيح صار محل سخرية وتهكم، بل وينال أكبر قدر من الهجوم من على منابر المسيح نفسه في خدمة الوعظ.

٢- إنكار أننا نأخذ المسيح ونحيا به ونتحد به في سر الشكر لكي نكون *Form* ذلك الاتحاد الذي لا يعرفه العالم، أي الكنيسة جسد المسيح، وهو قصد شرير وفظيع. فالكنيسة جسد المسيح؛ لأن الحياة التي في هذا الجسد ليست حياةً إنسانيةً ساقطةً فاشلة مستعبدة للخطية؛ بل كما يصرخ قانون الإيمان: "نؤمن بكنيسة واحدة مقدسة".

وأحد أسباب قداسة الكنيسة هي أنها جسد المسيح، ولأن الروح القدس قد قدَّسها، ولذلك يصرخ رسول المسيح: "أحب المسيح الكنيسة أيضاً وأسلم نفسه لأجلها لكي يقدسها مطهراً إياها بغسل الماء بالكلمة لكي يحضرها لنفسه كنيسة مجيدة لا دنس فيها ولا غضن (شيخوخة) أو شيء من مثل ذلك بل تكون مقدسة وبلا عيب" (أفسس ٥: ٢٥ – ٢٧). وعندما يقول الكاهن: "أخذ خبزاً على يديه الطاهرتين اللتين بلا عيب وبلا دنس الطوباويين المحييتين"، فهو يؤكد انتقال قوة الحياة

- بلا عيب
- بلا دنس
- طوباوية
- محيية

من الكاهن يسوع إلى الذبيحة يسوع إلى المتناول. ولكن عندما صارت الخطية هي محور ومركز التعليم طوال ٤٠ عاماً، لم نعد نسمع عن قداسة الكنيسة، بل حلَّت الخطية محل التقديس والقداسة، وغابت النعمة وضاعت قوة التدبير لكي يصول ويجول سلطان كهنوتي مزيَّف.

قبل أن ينتقل قداسة البابا كيرلس السادس إلى عالم النور باسبوعين قال لي: "يا ابني عاوزين كتاب عن الكهنوت؛ لأن الآباء الكهنة أخذوا مكان الرب يسوع .. توعدني .. فقلت له أوعدك .. ولا زلت أجمع سطور وصفحات هذا الكتاب.

لقد حدث إبدالٌ للهوية، وغاب المسيح يسوع، فغابت معه قوة الحياة، وحل محل الحياة الانقسام والموت وهما مكونات الخطية؛ لأن الخطية دخلت إلى العالم ومعها دخل الموت لأن الخطية تحمل الموت، لأن الخطية هي بحث آدم عن ذاته بدون الله لكي يكون صورة لذاته وليس صورة الله (تكوين ١: ٢٦).

الجسد الثالث، ما هو وكيف تم اختراعه حسابياً؟

لكي يتم انشطار الوعي كتب:

- جسد المسيح المولود من العذراء.
- جسد المسيح في سر الشكر.
- جسد المسيح الكنيسة.

وبذلك يكون قد صاغ نظرية الأجساد الثلاثة التي لم يقدِّم ولو نص واحد عن تاريخ هذه النظرية. وأين ولماذا ظهرت، إذا كان لها وجود في علم اللاهوت الشرقي الأرثوذكسي؟

وبذلك دخل القارئ في نفق مظلم لا يعرف من الذي حفره، ولماذا حُفر، وما هي غاية هذا النفق، وهل هو نفقٌ مسدود، أم أنه يؤدي في نهايته المظلمة إلى نور وحرية.

هكذا كانت العقيدة تقدَّم لشعب مؤمن صادق، ولكن الغذاء الذي كان يُقدم له كان كافياً تماماً لقتل إيمانه.

الإدعاء بأن الكنيسة جسد المسيح هو مجرد تشبيه:

لو أن رسول يسوع قال: "أمَّا أنتم مثل جسد المسيح"، لكان لدى أصحاب هذه النظرية حجة. ولكن الهروب نحو تحديد لفظي أجوف ينقل العلاقة مع المسيح نفسه رأس الجسد (أفسس ٥: ٢٣) إلى مجرد فكرة في عقول المؤمنين، هو هروب من تجسُّد الرب، ومحاصرة للإيمان في داخل العقل الإنساني لكي يفعل فيه ما يشاء ويخضعه لكل تصورات ممكنة وغير ممكنة.

على أن رفض هذا الإدعاء، لا يعود فقط إلى أنه ينكر تجسد الرب الذي تجسد لكي يجعلنا جسده "أمَّا أنتم فجسد المسيح" (١كو ١٢: ٢٧)، ولكن لأن اعتبار أن "جسد المسيح" هو مجرد اسم وتشبيه فقط يرد التشبيه إلى الجسد الإنساني، وأن علاقتنا بالمسيح هي مثل وحدة الجسد الإنساني. ولا شك أن الفكرة مغرية، ولكنه إغراءٌ مُدمر لأن ما دُمِّر هنا هو نفي العلاقة الجديدة الكيانية التي جاء بها الرب يسوع والتي صارت مجرد علاقة فكرية في العقول فقط لا وجود لها في **الواقع الجديد** الذي خلقه الرب بتجسده، وهو واقع ينتمي إلى مجمل حياة الرب وإلى الدم واللحم وإلى علاقة زواج إلهي – إنساني فيها اتحاد لا يصدر من العقل الانساني، بل من المسيح يسوع نفسه.

وثمة مسألة أخرى أكثر خطورة، وهي أن الجسد الانساني نفسه عبر الحضارات والثقافات له دلالات متعددة، سبق وأن دُرست في عصرنا بواسطة رواد الفلسفة والاجتماع[١].

فالجسد يلبس كل يوم قناعاً *Mask* وفي عالم التجارة والفن والشعر، بل وفي السياسة والاقتصاد، كل مقولة تخلع على الجسد أوصافاً ونماذج .. أشكال *Images* أحياناً تزيِّف الجسد الإنساني تماماً، وتحوِّله *Convert* إلى مُسوخ تم مسخها *Deformed* بمصطلحات وأسماء وتشبيهات. ولذلك، وقد أدرك الرب عثرة تجسده، قال: "جسدي مأكلٌ حق"، وهذا لا يمكن فصله عن كيانه الحق، ولا يمكن أن يتحول إلى فكرة عقلية أو نموذج أو شكل، بل يظل الحقيقة والواقع نفسه، أي واقع *Reality* الله الكلمة المتجسد، وهو الأمر الذي عجز معه الذين يفكرون بطريقة تجريدية *Abstract* أن يدخلوا واقع المسيح وسر تجسده وسر اتحاده بنا بالناسوت. وعندما يصبح الجسد الإنساني هو "المرجعية" *Term of Reference* للعلاقة مع المسيح، وهي هنا علاقة الجماعة مع الرب نفسه، فإن اكتشاف والنمو في هذه العلاقة لم يعد شركة ومحبة بين الرب والمؤمنين، بل تحول وصار موضوعاً عقلياً اختفى فيه المسيح الرب نفسه من هذه العلاقة، وأصبح المسيح يُقارَن بفكرة أو بمشاعر، ولا يشترك فيه الإنسان إلَّا بقدر تقدُّمه العقلي ..

كان هذا ولا يزال خطراً داهماً جاء مع حركة الإصلاح، ولا زال يهدد الأرثوذكسية القبطية التي تعصف بها رياح عقلية ليس لها علاقة بالثوابت في التسليم الكنسي، وإلَّا كيف سمح إنسانٌ لنفسه أن يكتب عن جسدٍ ثالثٍ لا وجود له؟ فليس للرب إلَّا جسداً واحداً شمل جميع البشر بتجسده مثلما شمل آدم الكل في كيانه الإنساني "كما في آدم يموت الجميع" (١كو ١٥: ٢٢) –ولنا عودة إلى هذه النقطة بالذات عن

---

(١) يكفي أن نشير هنا إلى كتاب واحد للباحث الفرنسي وعالم الاجتماع دافيد لوبروتون بعنوان: "انثروبولوجيا الجسد والحداثة"، نُشِر في بيروت، تعريب محمد عرب صاصيلا ١٩٩٧. وله مؤلَّف آخر نرجو أن نراه بالعربية، وهو "أجساد ومجتمعات، بحث في علم الاجتماع وانثروبولوجيا الجسد" نُشر بالفرنسية – الطبعة الثانية ١٩٨٨.

الواحد الذي يجمع الكل، وهو آدم الأول وآدم الثاني في دراسة منفصلة خاصة حتى لا يتشتت ذهن القارئ- أي يسوع الذي أكمل رسوله العبارة "كما في آدم يموت الجميع، هكذا في المسيح سيُحيا الجميع" (١كو ١٥: ٢٢)، ولاحظ هنا أننا سوف نُحيا *made alive* لا أن نحيا، أي لن تكون لنا حياة آتية منا، بل حياةٌ آتيةٌ من خارجنا، وُهِبَت لنا من يسوع الحي القائم من بين الأموات.

الجسد الواحد عند رسول الرب بولس

الجسد الواحد تعبير عن حياة الكنيسة؛ إذ يقول رسول الرب عن تنوع أعضاء الجسد الواحد، وهو تعدد المواهب: "كما قسَّم الله لكل واحد مقداراً من الإيمان، فإنه كما في جسد واحد لنا أعضاء كثيرة ولكن ليس جميع الأعضاء لها عمل واحد. هكذا نحن الكثيرين جسد واحد في المسيح وأعضاء بعضنا لبعض كل واحد للآخر" (رو ٨: ٣ – ٥). وهذه هي "وحدانية القلب التي للمحبة" حسب صلاة القداس الغريغوري، التي يجب أن "تتأصل فينا"؛ لأنها معرَّضة دائما للانقضاض عليها من الداخل بالقسوة وانعدام المحبة وسائر الشرور التي يأتي معها التقسيم، ولذلك السبب نفسه يقول رسول الرب: "وليملك في قلوبكم سلام الله الذي إليه دُعيتم في جسد واحد" (كولو ٣: ١٥). هذا الجسد لا يُدمر، ولكن يُحاط بالضعف، ومهدد دائماً بالانقسام، وهو مدعو إلى النمو ورسول المسيح يحذرنا: "بل صادقين في المحبة ننمو في كل شيء إلى ذاك الذي هو الرأس المسيح"، ونحن لا ننمو حسب المزاج والعواطف، بل في اتجاهنا نحو الرأس ندرك معنى عبارة رسول الرب: "الرأس المسيح الذي منه كل الجسد مركباً معاً ومقترناً بمؤازرة كل مفصل حسب عمل قياس كل عضو يحص نمو للجسد لبنيانه في المحبة" (أف ٢: ١٥ – ١٦)، وهو ما يتم أصلاً في المعمودية؛ لأننا اعتمدنا إلى "جسدٍ واحد" (١كور ١٢: ١١ – ١٣)، بل جاء ترتيب صلاة باكر حسب طقس أم الشهداء أن نصلي البولس من أفسس ٤: ١ – ٤، وهو السلوك حسب الدعوة الإلهية:

" بكل تواضع ووداعة وطول أناة،

محتملين بعضكم بعضاً في المحبة"

ولاحظ:

"مجتهدين أن تحفظوا وحدانية الروح برباط السلام".

لا أن نقسَّم إلى ثلاثة أجساد وننزع عن الكنيسة حياتها في الثالوث، بل "جسد واحد، روح واحد، كما دُعيتم أيضاً في رجاء دعوتكم الواحد. ربٌّ واحد. إيمانٌ واحد, معموديةٌ واحدة".

وهذا كله ثابت

"إله أبٌ واحد للكل

الذي على الكل (في المسيح)

وبالكل (بالروح القدس)

وفي كلكم (في الكنيسة)" (ق إيرينيئوس، ضد الهرطقات ٣: ١٨).

الإدعاء بأن الكنيسة جسد المسيح هو مجرد استعارة:

أي *Metaphor* والاستعارة تشبه النظَّارة التي نضعها على عيوننا لكي نرى الأشياء بشكل آخر، مثل قولنا عن شخصٍ ما إنه شجاع مثل الأسد، فقد تم استعارة شجاعة الأسد وأُلصقت بإنسان من أجل إبراز حقيقة أو صفة أو فضيلة، وربما رذيلة في إنسان أو حيوان أو جماد ... تحفل كل لغات الأرض بالاستعارات لخدمة الحوار وتقدم العلاقات الإنسانية، لكن "جسد المسيح" ليس استعارة لشيء أو لموضوع عقلاني أو فكرة نريد إبرازها، ليس فقط لأن التجسد حقيقة لا تجوز معها الاستعارة، بل لأن ما حققه التجسد هو ذات الحقيقة التي من أجلها حدث التجسد، وهي اجتماع واتحاد البشر ليس باتخاذ هوية أو اسماً يطوح بهم في أروقة الأنظمة ودهاليز النظريات، بل بأن

يصبح هذا الاتحاد له صفة واحدة، وهو أنه اتحاد إنساني حقيقي يعبِّر عنه ذلك الاسم "جسد"، ويُنقل هذا الاتحاد من الواقع الإنساني إلى الحياة الإلهية التي يعلنها اسم "المسيح"؛ لأن جسد المسيح يسوع الذي مُسح بالروح القدس بعد خروجه من مياه الأردن، لم يعد مجرد جسد الله الكلمة فقط، بل فتح أمام الجسد نفسه –بمسحة الروح القدس– حياة روح الله الحي القدوس غير المنقسم، ولذلك يوصف هذا الجسد في كل قداسات الأرثوذكسية بأنه "حيٌّ ومُحيي".

ليس أجساداً كثيرة، بل جسدٌ واحدٌ حسب شهادة ذهبي الفم:

في العظة ٢٤: ١٦ – ١٧ على كورنثوس الأولى يشرح ذهبي الفم كلمات رسول يسوع فيقول:

> "لماذا قال بولس وأضاف (إلى كلمات الرب نفسه) الخبز الذي نكسره (١ كو ١٠: ١٦)؟ لأن هذا نراه في سر الشكر، ولكنه لم يحدث على الصليب، بل لقد حدث العكس: عظماً منه لم يُكسَر (يوحنا ١٩: ٣٦)، وما لم يحدث على الصليب يسمح به (الرب) لأجلنا؛ لأنه في القربان يكسر هو ذاته لكي يملأ كل أحد .. وبالإضافة إلى ذلك يقول بولس "شركة الجسد" (١كو ١٠: ١٦) لأن كل الذين يشتركون هم متمايزون كلٌّ عن الآخر عندما يشتركون، ولكن الاختلافات بينهم قد زالت، ولذلك قال "شركة الجسد"، لأنه أراد أن يعبِّر عما هو أعمق، وشديد الالتصاق، ولذلك أضاف "لأنه خبزٌ واحد ونحن جسدٌ واحد" (١كو ١٠: ١٧)، وكأنه يقول لماذا أكتب لكم عن الشركة؟ أنتم ذات الجسد. ما هو الخبز؟ هو جسد المسيح. ليس أجساداً كثيرة، بل جسدٌ واحد، لأنه كما أن الخبز صُنِعَ من حبات الحنطة المتنوعة واتحدت كل حبات الحنطة، فلم تعد هناك في الخبز حبة حنطة واحدة منفصلة، بل الكل اتحد معاً حتى زالت الخلافات بسبب الاتحاد والتضامن لأننا نلتصق كلٌّ بالآخر وبالمسيح".

ويأتي جواب ذهبي الفم عن الكنيسة التي تأكل نفسها في ذات العظة:

"أنتم لا تأكلون جسداً والقريب جسداً آخر، بل جسدٌ واحد نأكله نحن جميعاً؛ لأننا جميعاً نأكل ذات الجسد، ولذلك السبب أضاف بولس: "لأننا نشترك في الخبز الواحد" (١كو ١٠: ١٧) والآن إذا كنَّا جميعاً نتغذَّى بذات الخبز، ونصبح الجسد الواحد، فلماذا لا نشهد بذات المحبة الواحدة .." (راجع الترجمة الانجليزية مجلد ١٢: ص ١٣٩-١٤٠).

فالشركة تجعلنا واحداً لأن الذي على المائدة هو خبزٌ واحد، ولأن الكل يشترك في هذا الخبز الواحد لكي يصير الكل جسداً واحداً. وفي نفس العظة ونفس المرجع يقول:

"الخبز الذي نكسره أليس هو شركة جسد المسيح" (١كو ١٠: ١٦) وهو لم يقل إنه اشتراكٌ لكل فرد على حدة، بل شركة الكل، أي شركة جسد المسيح؛ لأن في هذه الشركة اتحاد وهو (غاية) الشركة. فنحن لا نشترك كأفراد كل واحد على حدة، بل نشترك لكي نتحد ويكون لنا نحن الكل اتحاد، وكما أن الجسد متحد بالمسيح هكذا نحن متحدون به بالشركة في الخبز الواحد".

ولم يقف ذهبي الفم عند هذا الشرح، بل شرح الاتحاد قائلاً:

"دعونا نلتصق بالمسيح، فهو أساسُنا مثل التصاق الأغصان بالكرمة ولا نسمح بأن يقف أو يدخل بيننا وبين المسيح شيء؛ لأنه إن حدث انفصالٌ، فإننا على الفور نهلك؛ لأن الغصن يحيا إذا كان يأخذ عصارة الحياة بالالتصاق بالكرمة، بل إن أي بناء يبقى قائماً لأنه متماسك بالأسمنت الذي يشده معاً، ولكن إذا انفصلت الأحجار، فإن البناء سوف ينهار، لذلك دعونا لا أن نمسك بالمسيح فقط، بل أن نتحد به لأننا إذا وقف كل واحد

منا على حدة فإننا سنهلك، لأنه مكتوب: "ها إن كل الذين تركوني قد هلكوا" (مزمور ٧٢: ٢٧ س). علينا أن نلتصق به، وأن نلتصق به بما نقوم به من أعمال؛ "لأن الذي لديه وصاياي ويحفظها يثبت فيَّ" (يوحنا ١٤: ٢١). فالرب يؤكد اتحادنا به بعدة طرق منها أنه هو الرأس ونحن الجسد، فهل توجد مسافة خالية تفصل بين الرأس والجسد؟ هو الأساس ونحن البناء. هو الكرمة ونحن الأغصان. هو العريس ونحن العروس. هو الراعي ونحن الخراف. هو الطريق ونحن المسافرون. نحن الهيكل وهو الساكن. هو الوارث ونحن وارثون معه. هو الحياة ونحن الأحياء به. هو القيامة ونحن سوف نقوم. هو النور ونحن به نستنير" (راجع عظة ١٥ على رومية مجلد ٦٠ عامود ٣١٨-٣١٩).

نحن مذبح المسيح:

لقد جرى تزييف متعمد للحياة الليتورجية، أي تلك الحياة التي نشترك فيها جميعاً في القداسات وسائر الخدمات الكنسية عندما صارت مباني الكنائس أعظم من البشر، وعندما دخلت ثنائية المذبح والذبيحة، ثم ثنائية الذبيحة والكاهن، وهو أمرٌ يناقضه تماماً وحدانية المذبح والذبيحة والكاهن، وهو الرب يسوع الذي ذُبِحَ على الصليب المكرم بإرادته وحده وسلطانه لأن إرادة الرب التي أُبرزت مرتين في عب ١٠: ٧، ثم في عب ١٠: ١٠ هي المذبح الحقيقي الذي قدَّم عليه الابن ذاته بالروح الأزلي أي الروح القدس حسب عب ٩: ١٤. ولا يمكن فصل الكاهن عن الذبيحة لأن حياته هي الذبيحة وكهنوته مُستَمَد من الذبيحة "لهذا لزم أن يكون لهذا (المسيح) أيضاً شيء يقدمه" (عب ٨: ٣)، ولذلك قدَّم "دم نفسه" (عب ٩: ١٢)، وهو التقديم الأزلي السابق على خلق العالم "دم كريم كما من حمل بلا عيب ولا دنس دم المسيح معروفاً سابقاً قبل تأسيس العالم، ولكن قد أُظهِر في الأزمنة الأخيرة من أجلكم" (١ بط ١: ١٩ - ٢٠).

المسيح الكاهن والذبيحة والمذبح هو سبب وأصل وجود المذابح الحجرية أو الخشبية والهياكل .. هذه هي العلامات الزمنية المنظورة التي تعبِّر عن الحقيقة الأبدية عن الواحد الحي الذي بيننا ذبيحة وكاهن ومذبح يأتي إلينا لكي يعطي لنا حياته ونحن نقدم حياتنا "ذبيحة حيةً مقدسةً مرضية عن الله (في الوسيط يسوع المسيح) خدمتنا (عبادتنا) العقلية" (رو ١٢: ١) التي تفوق الخدمة القديمة حسب الشريعة القديمة في اللاويين والتثنية.

ونحن قربانٌ على المذبح السمائي يسوع المسيح حسب خدمة المعمودية: "عبيدك الذين قدموا لك أبنائهم أقبلهم على مذبحك المقدس الناطق السمائي بواسطة خدمة ملائكتك ورؤساء ملائكتك"؛ لأن القوات السمائية تشترك في التقديم بسبب المصالحة التي حققها رب المجد الذي "سُرَّ أن يحل فيه كل الملء وأن يصالح به الكل لنفسه عاملاً الصلح بدم صليبه بواسطته سواء ما هو كائن على الأرض أم في السموات" (كولو ١: ٢١ – ٢٢). ونحن نقدم القربان، حسب أوشية القرابين، وهي وإن كانت تحتوي على إشارة واضحة إلى المذبح، أي مذبح الكنيسة، إلَّا أن هذا المذبح هو العلامة المنظورة للمذبح الحقيقي يسوع المسيح، وهو – كما في صلاة تكريس الكنيسة – "عرش اللاهوت". فالعودة إلى وحدانية الجسد – وحدانية المذبح والقربان – وحدانية الذبيحة والكاهن، هي عودة إلى ينبوع الحياة الحقيقية التي يجب أن نمارسها في دقة الأرثوذكسية، بحسب ذهبي الفم الذي يقول إننا نحن البشر مذبح المسيح. ففي العظة ٢٠ على ٢ كو (مجلد ٦١: عامود ٥٤) يعظ ذهبي الفم في الكنيسة ليقول للمؤمنين عن الفرق بين مذبح العهد القديم ومذبح العهد الجديد:

> "يتكون المذبح من كل أعضاء المسيح؛ لأن جسد الرب صار هو مذبحك. إنحنِ بخشوع لأن جسد الرب يقدَّم عليه، هو المذبح (البشر) الذي تقدِّم أنت له الذبائح، وهذا المذبح أعظم من المذبح الذي في الكنيسة (الهيكل)، وهو حتماً أعظم من مذبح العهد القديم، لا تجادل. هذا المذبح الحجري هو مذبح ملوكي؛ لأن الذبيحة تقدَّم عليه، ولكن مذبح التقدمات

والصدقة هو أعظم؛ لأنه مكوَّن من الذبيحة (يسوع) ذاته. المذبح الحجري ملوكي؛ لأنه تقدَّس بجسد المسيح، أمَّا المذبح الحي فهو جسد المسيح ذاته. لذلك يا أخي هو فائق التكريم عن مذبح الكنيسة الذي تراه الآن".

ويمضي في المقارنة:

"مَن هو هارون حتى يمكن أن نقارنه بما عندنا؟ ... إن مذبح عطايا المؤمنين هو أعظم من المذبح الذي لدينا الآن. أنت تكرِّم المذبح لأن جسد المسيح يوضع عليه، ولكن المذبح الحي هو جسد المسيح، فلا تعامله بجفاء واحتقار ..

هذا المذبح تراه في كل مكان، في كل الشوارع، وفي الأسواق، وفي كل ساعة تستطيع أن تقدم قربانك عليه. وكما أن الكاهن يستدعي الروح القدس عندما يقف عند المذبح، فأنت أيضاً استدعِ الروح القدس لكي يكون مثل انسكاب زيت المسحة في العهد القديم".

التدمير من الداخل بسبب انقطاع التواصل مع التسليم الكنسي:

لقد حاولنا أن نتكلم في هدوء وراء الأبواب المغلقة طوال سنوات مطاردة الأب متى المسكين وفشلنا. كان الرفض مصدره الأساسي هو انقطاع التواصل مع تراث وتسليم الإيمان والحياة التي امتاز به جيل الأنبا كيرلس السادس والجيل الذي سبقه، والذي رأينا بعضاً منه رأي العين. كان التسليم الكنسي يقوم ليس على تلقين وحفظ الصلوات والطقوس، بل حفظ "أركان الإيمان" وكان الركن الأساسي لهذا التسليم:

١– إن ما هو إلهي هو غير قابل للانقسام.

٢– وهو أيضاً غير قابل للموت أو الاضمحلال أو الزوال.

ولم يكن هذا التسليم يتم في كرَّاس أو كتاب مجهول، بل هو ما يسلَّم في صلوات القداسات والمعمودية والميرون؛ لأن الذبيحة هي جسد المسيح الحي والمحيي واهب عدم الموت.

ولأن الموت أُبطل، فعلى الذاكرة أن تنتقل مستنيرةً بنور القيامة "لكي نضيء بشكلك المحيي" كما تقول صلاة القسمة. وهذا الشكل المحيي ليس هو شكل من لا زال في "قبر الماضي"، بل هو شكل من انتشله المسيح من الموت والقبر و"أجلسنا معه في السماويات في المسيح يسوع" (افسس ٢: ٦). لكن المشكلة لدينا تتمثل في الذين لم يستنيروا ودخلوا الكهنوت خلسة، وهؤلاء جاءوا بمعرفة غير كنسية، أصولها الخبرة الشخصية التي لم تنل تطهير روح الرب، ومجالها الزعامة التي تفتش عن أي شيء يؤكد لها قدرتها على حشد الرعاع وتأليب الأتباع والهجوم على الجانب المستيكي ***Mystical*** بخداع الألفاظ مثل "الكنيسة تأكل نفسها"، وهو منطق سقيم. "والكنيسة تسجد لنفسها عندما تقول نسجد لجسدك المقدس". و"الكنيسة جسد ثالث" لا ندري من أين جاء وما هو مصيره ومن الذي كوَّنه؟

إن أكل الكنيسة لنفسها هو خداعٌ مبني على فهم إسلامي أصلاً للسجود؛ لأننا نسجد ليس لمن هو خارج عنا، أي الله في الإسلام، بل نسجد بالروح والحق (يوحنا ٤: ٢٣ – ٢٤)، وبالتالي، سجودنا، هو خدمتنا للثالوث الذي فدانا والذي فيه وبه نسجد. كان أحد الآباء يقبِّل الأرض عندما يسجد، وعلق على ذلك قائلاً: لأن الرب يسوع لا يزال يمشي عليها؛ لأنه في وسطنا، ولأنها وُحِّدَت بالسماء، ولأن الأرض كما قال الرب نفسه هي "موطئ قدميه" (متى ٥: ٣٥).

ولذلك، الآخر يسوع، هو من كياننا، وهو فينا، وقد علَّق أحد الآباء على عبارة "الكنيسة تأكل نفسها" وقال: "يعني عندما أستحم بالماء أنا بغسل نفسي، وإذا جاء واحد وغسلني، فهل هو غريبٌ عني؟ أليس كل أخٍ هو عضو في جسد الرب؟ وأليس هو الرب نفسه يغسلنا بواسطة الآخرين؟ وأليس جسدي هو جسد يسوع؟.. ده كلام مش

ضروري، ربنا يرحم".

يسوع كان وديعاً فيَّ، وفي الآخر، وهو سبب وحدتنا، وعندما نعود إليه في القداسات فهي ليست عودة انقطاع، بل عودة تواصل، وعودة سببها الانشغال العقلي الدائم اليومي.

ونحن نأكل الذبيحة لنكون واحداً: "اجعلنا مستحقين يا سيدنا أن نتناول من قدساتك طهارة لأنفسنا وأجسادنا وأرواحنا لكي نكون جسداً واحداً وروحاً واحداً ونجد نصيباً وميراثاً مع جميع قديسيك ..".

واضحٌ إذن مدى التدمير الذي يمكن أن يصيب الكنيسة من الداخل جراء هذه النظرية، حيث تبقى الكنيسة بلا مسيح وبلا روح الله وبلا شركة، وتصبح ذلك الكيان الثالث الذي له وجود اجتماعي ومدني يرأسه البطريرك والأساقفة (مع وجود هامش للقساوسة)؛ لكي تسود السلطة على الشعب، فهو ليس جسد المسيح، بل هو جسدٌ ثالثٌ غريبٌ عن المسيح .. وصار أيضاً غريباً عن الروح القدس؛ لأنه لا ينال الروح القدس، بل المواهب فقط، والباقي طبعاً معروف: تدمير الشركة في الطبيعة الإلهية لأننا حتى في الإفخارستيا نتناول جسد ودم عمانوئيل فقط ولا نأخذ ولو لمسة من إلوهيته (تعليم نسطور)، ويبقى عندئذٍ هناك فراغ تام تملأوه سلطة بلا نعمة، وكهنوت تحوَّل من خدمة وبذل إلى قهر وتسلُّط؛ لأن لدينا جسداً ثالثاً نما معنا، لا نعرف له أصلاً ولا فصلاً اخترعه الأنبا شنودة الثالث .. غفر الله له.